الرسائل الإسلامية
٢

بماذا انتصر المسلمون

أنور الجندي

مؤسسة الرسالة



بماذا انتصر المسلمون

الطبعة الثانية

طبعة جديدة منقحة

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م



مؤسسة الرسالة بيروت – شارع سوريا – بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ – ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

بماذا انتصر المسلمون

إن أبسط إجابة على هذا السؤال هي أن المسلمين انتصروا بالإسلام نفسه. فهم قد فهموه فهماً دقيقاً ثم طبقوه على أنفسهم تطبيقاً صحيحاً. فأنشأ منهم خلقاً جديداً، غير النفوس والقلوب والعقول، وحررها من الوثنية وعبادة غير الله وفتح أمامهم أفاق الإيمان والعمل فاندفعوا يحملون رسالة التوحيد إلى الإنسانية كلها فأقاموا أمة وإنشأوا دولة كبرى، وأعلوا كلمة الله في الأرض حقاً وصدقاً.

ومنذ ذلك اليوم والمسلمون يؤمنون بأن الإسلام هو الذي صاغهم على الفطرة وأقامهم على الحق، وإنهم به يواجهون كل خطر ويدفعون كل عدو ويردون كل باغ، فإذا غشيتهم الغواش وحالت بينهم وبينه الحوائل، فقدوا الروح المعين والسند الأمين وأصابهم الغم، **فإذا عادوا إليه عاد لهم النصر والظفر ومكن الله لهم في الأرض.**

ولقد كان المسلمون في كل أزمة من أزماتهم، أو منحنى

من منحنيات الطريق يتوقفون ليسألوا أنفسهم: هل هم حقاً مسلمون! ومن ثم يعودون إلى فهم الإسلام فهماً دقيقاً وتطبيقه تطبيقاً صحيحاً.

ولقد واجه المسلمون على المدى الطويل في تاريخهم قوى عاتية وغزواً خطيراً ومحناً متصلة، ولقد استطاعوا أن يواجهوها بهذا الفهم وهذا الإيمان فانتصروا وعزوا وخرجوا أشد قوة وأقوى عزماً.

وحققوا إرادة الله في أقامة كلمة التوحيد في الأرض ويستطيع أي باحث أو مؤرخ أن يلمح هذه الحقيقة واضحة، فإذا رأى المسلمون في معترك الأزمات والخطوب تتقاذفهم الأحداث فثمة خطأ وقع بهم في فهم الإسلام أو في تطبيقه أو فيهما معاً.

فإذا عادوا إليه عاد لهم عزهم ونصرهم.

ذلك إن هذه الأمة قد صيغت منذ نشأتها على أساس واضح من الترابط بين الإسلام والإيمان. وبين العقيدة والعمل، وفق أصفى مفهوم للتوحيد، وأصدق فهم لإقامة المجتمع الانساني واجتمع لها في إيمانها: العقيدة والشريعة والأخلاق دون أن ينفصل أحدهما عن الآخر، وتكامل لها مفهوم المعرفة القائم على القلب والعقل.

والتمست قوتها وقدرتها الأساسية من خلال التربية وبناء

الرجال وصياغة البطولة التي تجعل العمل كله لله ولا تتطلع إلى مطامع الحياة ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً﴾ وأساس الأخلاق فيها هو التقوى، والأخلاق منها رباط متصل بكل القيم والمفاهيم، وحجاب حاجز لكل العناصر التي يتشكل منها الفرد والجماعة.

وقد ظلت سيرة الرسول ﷺ بكل دقائقها وتفاصيلها أمام المسلمين قدوة صادقة وأسوة حسنة، تضع الصورة المثلى والتطبيق الواضح للإسلام نفسه منهج حياة في كل ما يتصل بالحياة من أمور، وقد كانت المثل الأعلى أمام القادة والمصلحين والأبطال والمجاهدين وما زالت وستظل كذلك إلى أبد الآبدين.

ولقد صاغ الإسلام رجاله صياغة النضال والكفاح والجهاد، بمفهوم الحفاظ على البيضة وحماية الثغور، فهم على تعبئة دائمة، بالعمل والرباط والمقاومة والرد على كل عدوان، وكل حرب نفسية، وكل محاولة لإثارة الشبهات حول فكرهم وعقائدهم وتاريخهم ولغتهم.

ومنذ بزغ ضياء الإسلام والمسلمون ممتحنون بالأمم والخصوم والمطامع، ومن هنا كان الجهاد فريضة من فرائض الإسلام، ولقد تدافعت القوى عليهم من صليبيين وتتار وفرنجة، وهي القوى الخارجية ومن باطنية ومجوسية وشعوبية وهي القوى الداخلية، وقد صمد الإسلام لذلك كله، وواجه

المسلمون هذه القوى بالقلم والسيف بالحق، دون عدوان وإنما دفاعاً عن وجودهم حتى استسلم العدو.

وهم اليوم يمرون بمرحلة من هذه المراحل الخطيرة الفاصلة في تاريخهم وتاريخ الإسلام نفسه، وأمامهم من يحاول أن يزجي لهم النصح عن الوسيلة التي تحقق لهم النصر أو الثبات في المقاومة ولكنهم لن يجدوا ناصحاً لهم أوفى من القرآن، ولن يجدوا أسلوباً أصدق وأقرب إلى نفوسهم وأصح تجربة من الإسلام نفسه الذي حمل بين أطوائه الطريق الأصيل للنصر والصمود والمقاومة والعمل، هذا الطريق الذي لا سبيل للمسلمين دونه، والذي يتفق مع طبيعة تركيبهم العقلي والنفسي والذي تشكل مع ذاتيتهم ومزاجهم الذي صاغه صياغة حقة منذ أربعة عشر قرناً.

وهو الذي لن يجد المسلمون من دونه نصحاً أصدق أو وجهة أحق، أو طريقاً أوفى مهما بحثوا عن الأساليب والمناهج عند الأمم التي لها طوابعها ومزاجها، وأسلوب حياتها وعقائدها التي شكلت لها طريقها الخاص بها.

بماذا انتصر المسلمون

انتصروا بقيم ومقومات ومثل كثيرة قرآنية ربانية نجد أبرزها فيما يأتي:

١ - عقيدة سليمة:
٢ - عبادة صحيحة:
٣ - كتاب منير:
٤ - أسوة حسنة:
٥ - شريعة عادلة:
٦ - أخلاق إيجابية:
٧ - جهاد في سبيل الله:
٨ - تربية صالحة لبناء الأجيال:
٩ - مفهوم شامل للحياة والمجتمع:
١٠ - إيمان صحيح يربط العلم بالعمل:
١١ - بطولة في المواقف:
١٢ - صمود في وجه العدو:



(١)

عقيدة سليمة .

أن التماس المسلمين للعقيدة الصحيحة كان من أهم العوامل في انتصارهم ذلك أن هذه العقيدة إذا ما انحرفت عن أصولها الأصيلة لا تكون حائلا دون تحقيق النصر فحسب. بل تصبح عاملا من عوامل الهزيمة والتخلف والضعف.

ولذلك فإنه في كل أزمة من أزمات التاريخ الإسلامي كان أول ما يتجه إليه المصلحون هو التماس المفهوم الأصيل للإسلام الذي جاء به القرآن الكريم بعيداً عن كل تحريف أو اضطراب أو تغيير وإزالة ما عسى إن يكون قد غشي هذا المفهوم على طول الزمن من انحرافات حالت دون وضوح جوهره أو بروز خواصه التي أنزلها الله.

وقد كان للاعلام والأئمة من أمثال الأئمة الشافعي والأشعري وابن حزم والغزالي وابن تيمية أثر كبير في هذه المراجعة التي أعادت النظر في حقيقة الإسلام وجوهره الخالص وإزالة كل زيف أو إضافة أو نقص حملته رياح الفكر البشري إلى العقيدة الصافية:

وتلك أخطر مهام المصلحين من المسلمين على مدى العصور، وهي المهمة الخطيرة التي تنبه لها الدعاة كلما ألم بالمسلمين أمر أو أصابهم مكروه أو مرت بهم ضائقة أو سيطر عدو على أرضهم أو حاول النيل من عزتهم ومكانتهم.

وعقيدة الإسلام في جوهره «بيضاء نقية» ليلها كنهارها، قوامها الفطرة الصافية وتتمثل في كلمة واحدة هي:

«التوحيد»

وأبرز سمات الإسلام هو التوحيد: طابع عقيدته وشريعته ونظامه الاجتماعي كله، وعليه تقوم القواعد الأخلاقية والفكرية والعقلية والوجدانية جميعاً.

﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم﴾ والتوحيد هو مفهوم الفطرة السليمة التي تتمثل في أنه لا معبود ولا خالق ولا رازق ولا ضار ولا نافع غير الله سبحانه وتعالى.

والتوحيد في مفهومه الأصيل أن لا يرى الإنسان سوى الله وحده سيداً وهدفاً فليس يرجو غيره أو يخشى سواه.

وعلى هذا المفهوم نفسه يقوم كيان الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي من مختلف جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وبهذا حرر مفهوم الإسلام الأصيل البشرية من أخطار الوثنية والتعدد والشرك والإنكار الكلي وتأليه البشر وغيرهم.

ويرسم مفهوم التوحيد في الإسلام دائرة متكاملة للمجتمع والفكر الإنساني كله قوامها: سيادة الإنسان للكون تحت حكم الله والتقاء القيم الروحية بالقيم المادية دون تعارض أو تضارب، وترابط العقل بالقلب والدنيا بالآخرة.

وللتوحيد شرطان: الإيمان بالله الواحد وتنزيه الله عن كل صفة يتصف بها خلقه، والإيمان بالرسل والكتب والبعث والجزاء.

ومن تمام الإيمان أن الله سبحانه وتعالى منزه عن المشابهة والمشاكلة، ولا يجوز عليه اتحاد أو تركيب.

ومن مفهوم التوحيد نجد المنطلق الصحيح لتشكل النفسية الإسلامية والعقلية الإسلامية جميعاً بعيدة عن الطقوس والرموز أو عبادة الأبطال أو تقديس الموتى.

وهذه العقيدة هي مصدر كل ما حققه المسلمون من إنتصارات وصفت بأنها المعجزات الخارقة.

ذلك إن عقيدة التوحيد تعطي المسلم إعلاء الله سبحانه على كل عظيم، فلا يعبد الأفراد ولا الأبطال ولا الأولياء، وفي ضوئها تقدر أعمال الناس بأعمالهم لا بأحسابهم ولا مكانتهم المادية ولا أصولهم ولا أنسابهم.

ويفتح التوحيد الباب على مصراعيه بين الإنسان والله بغير واسطة أو وصاية فالله خالق كل شيء وإليه يرد كل أمر ولا يقع أمر إلا باذنه.

والله سبحانه هو واجب الوجود، وهو صانع الوجود القائم بذاته وكل ما في الكون من صنعه وخلقه: وهو الذي أبدع العالم وأنه سبحانه يمسك السموات والأرض أن تزولا.

والإنسان وفق مفهوم التوحيد: حر مسئول محاسب على عمله، لقد كان الايمان بالله وحده مرتبط بالإيمان بالبعث والجزاء والحساب وإن كل نفس بما كسبت رهينة.

وهذه هي أكبر صور الحرية في الاسلام: تحرر الإنسان من سيطرة الوثنيات المادية. فالإسلام أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين ولا ريب أن تحرير النفس الإنسانية من الوثنية والخرافات والعصبيات هو الطريق إلى الأخوة الإنسانية.

ويصف المسلمون الحق تبارك وتعالى بما وصف به نفسه في القرآن وبما وصفه به الرسول ﷺ في أحاديثه مع عدم تشبيه الله بمخلوقاته أو تعطيله عن صفاته فالله واحد عال على الكون لا تدركه العقول الانسانية.

وكتاب الله قديم غير مخلوق وكلامه أمر ونهي وأخبار، وأن الله سبحانه خلق العالم بعد أن لم يكن، «خلقه من العدم» والله هو الخالق لكل ما يجري في العالم من تغيرات

ويمكنه أن يعدمه كلياً أو جزئياً.

وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده يوماً بعد يوم. ويوم البعث: بعث الأجساد والأرواح معاً ثم الحساب والجزاء والجنة والنار.

والقضاء والقدر هو إيمان بأن الأجل محدود والرزق مكفول والأمور بيد الله يصرفها كيف يشاء.

وبأن علم الغيب قاصر على الحق سبحانه ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾ وأن العقل عاجز عن معرفة الذات الإلهية، وقادر بالوحي على إدراك صفات الله.

ويؤمن المسلمون بقضاء الله وقدره إيماناً لا يتزعزع، ويؤمنون بعلم الله وقدرته وإرادته.

وقد فهم المسلمون الأولون أن التوحيد يعني نفي تعدد الآلهة ونفي التركيب.

ومن هنا عرفوا أن توحيد الله ينطوي على وحدة النوع البشري ذلك أن أول شرط للنهوض بالإنسان وتحرير عقله هو تحريره من العبودية لغير الله والتوحيد الحق هو تحرير العقل والنفس من أغلال التقاليد البالية والمعتقدات الفاسدة حتى يؤمن بآله واحد لا شريك له.

وقد آمن المسلمون بأن الإنسان بهذا المعنى من التوحيد هو خليفة الله في الأرض وأعظم المخلوقات، وهو المسئول عن

نفسه وليس مسئولا عن خطيئة أحد، وأن كل مولود يولد على الفطرة.

وإن معصية آدم قد انتهى أمرها في حياة آدم نفسه فقد اجتباه ربه وتاب عليه وهدى، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى.

وهذا المفهوم للقضاء والقدر يعصم من اليأس والسخط والغرور، ويمنح الصبر بالقضاء إذا وقع، ويجعل من الصبر قوة تحول دون القنوط واليأس.

ولقد كان المؤمنون يثقون دائماً بقضاء الله فيمنحهم ذلك الشجاعة فهم يعلمون أنه لن يصيبهم إلا ما كتب الله لهم، ومن هذا حققوا في التاريخ أشرف ما يحققه الإنسان لدينه ووطنه.

فقد واجهوا الأزمات والأحداث في قوة ودافعوا خصومهم وردوهم على أدبارهم.

* * *

ولقد آمن المسلمون بتوحيد العبودية: وهو أن تكون كل عبادة من العبد لله وحده فلا يوجه وجهه إلا الله، ولا يتقرب إلى سواه.

كما آمنوا بتوحيد الربوبية وهي الإيمان بأن الله رب العالمين وخالق الخلق ومدبر الأمر وهو الذي وضع الدين والشرع فلا

يقبل من أحد قول أو تحريم أو تحليل لأن الحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه الله.

وآمن المسلمون بأن الموجود إثنان: واجب الوجود وممكن الوجود أما واجب الوجود فهو الحق تبارك وتعالى صانع الوجود.

وأما ممكن الوجود فهو هذه الكائنات كلها التي ندركها بحواسنا الخمس مباشرة، ولا يقر الإسلام أن كلاهما واحد أو أن الكون هو الله.



(٢)

عبادة صحيحة

لقد فهم المسلمون الأولون هذا الترابط الوثيق بين عناصر الإسلام عقيدة وعبادة وأخلاقاً وعرفوا هذه العلاقة الجذرية القائمة بين الإسلام والإيمان.

ولم يقبلوا تلك الفواصل التي عرفتها المذاهب والنحل التي تجعل من الأخلاق نظرية عقلية أو التي تقف بالإنسان عند مفهوم العقيدة دون أن يربطه بمفهوم العبادة أو أن يقف المسلم عند المفهوم وحده دون التطبيق.

وفهم المسلمون الأول الإسلام كلا متماسكاً وطبقوه تطبيقاً كاملا في مجال العبادة والمعاملة وآمنوا بأن الدين المعاملة وأن الشريعة التي هي نظام المجتمع أساس لا بد منه وأن الجهاد من فرائض الإسلام النافذة التي لا تتوقف.

فالعبادات كلها من الفرائض التي لا تصح العقيدة الصحيحة إلا بتطبيقها. والتي تعطي لهذه العقيدة منطقها الحقيقي إلى تشكيل حياة المسلم وكيانه على النحو الرباني الكريم القائم على التوحيد الخالص:

والعبادات في الإسلام تمتاز على غيرها بأنها لا تقصد إلى مجرد التعبد، وإنما ترتبط بحماية الفرد صحياً واجتماعياً وعقلياً وترقيته والسمو به عن أن يصبح خاضعاً للرغبات والأهواء، فلا يكون ذليلا لها، ولا عبداً، ومن ثم تصبح ذات سطوة تقضي على مقومات الكيان الإنساني وتهده، وتدع صاحبها منهاراً ذليلا، عاجزاً عن تحمل مسئولياته في العمل والجهاد.

* * *

والصلاة هي أم هذه العبادات وأكبرها قدراً ولا يصح إسلام المرء واكتمال إيمانه إلا بأدائها فهي أعظم مظاهر العقيدة وأبلغ صور التوحيد وهي الصلة القائمة الدائمة المتصلة بين الإنسان وربه، والصلاة على المؤمنين كتاب موقوت.

وجوهر الصلاة أن يقف الإنسان أمام الخالق خاشعاً قد فرغ ذهنه من كل الشواغل. والوضوء مدخل إلى الصلاة بالطهارة المعنوية والحسية معاً، وشرط الصلاة طهارة البدن والثوب واستقبال القبلة.

والصلاة عبادة ورياضة وقراءة ودعاء، وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر وتنمي ملكة حصر الذهن وتقوية النفس والالتجاء إلى الله وحده في الأزمات والملمات وهي أصدق الأساليب التي سنها الإسلام لتربية رجاله وأهله.

فهي تعمل على إحكام الرابطة بين الإنسان وربه خمس مرات في اليوم، في أوقات محدودة من خلال ساعات العمل

والراحة واليقظة والنوم والطعام والسعي، تخلطها بها، فتتصل النفس بالله دوماً وتجددها آناً بعد آن.

ثم هي بإسباغ الوضوء تجعل الطهارة عنصراً أساسياً من حياة المسلم وقد فهم المسلمون الأول أهمية الصلاة في حياتهم وارتباطها بالصلاة الجامعة في المسجد وفي يوم الجمعة سعياً إلى ذكر الله ﴿إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع﴾.

أما الصوم فهو حلية العام كله، تجديداً للنفس والصحة والجسم.

فالصوم فريضة فردية وجماعية وهي امتحـان للحـرمـان ومجاهدة النفس في التغلب على شهواتها وملذاتها.

وهو « كفاح موجه من نفس الإنسان ضد رغبات جسمه وبدنه يحرم الإنسان لذته من أجل الله، والصوم زكاة الجسم، والصوم أيضاً نصف الصبر، وليس لأحد رقابة على الصوم إلا الإنسان نفسه فهو امتحان صادق للضمير ودعوة إلى التمسك بالأمل وتجنب لليأس.

وهو في نفس الوقت إعداد للنفس لتكون قادرة على مواجهة الأحداث والأزمات بالصبر والاصطبار والمجاهدة، وهو مران على إضعاف سلطات العادة فلا تسيطر على المسلم عادة ما ولا تستعبده، وتقوية للارادة وتحقيق لسلطان الروح

على الجسد حتى يعيش الإنسان مالكاً زمام نفسه[1]».

والزكاة فريضة إجتماعية تقوم على البذل بالتنازل عن جزء من المال الذي يملكه المسلم ويقتنيه ليوجهه إلى وجه الله خالصاً. وحكمة الزكاة أنها تبني القدرة على الإنفاق في سبيل الله وتطهر النفس من البخل والقسوة والأثرة وتبني المجتمع بتنظيم حياة أفراده.

وقد ارتبطت الزكاة بالصلاة فهما دعامتا الإسلام: إحداهما بالإتصال بالله والأخرى بالإنفاق وهو المعنى الذي حدده القرآن وأكده دوماً ﴿الذين أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾.

والزكاة ليست صدقة ولكنها فريضة إجبارية، وحق للفقراء في مال الله الذي أعطاه للغني ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾.

وهي ضمان إجتماعي يرفع مستوى المجتمع كله ويحول دون وجود المحتاجين، وهي نظام إجتماعي يحفظ التوازن بين طبقات الأمة وكان الإسلام أول من سبق العالم كله إلى وضعه وتنفيذه[2].

والحج فريضة القادرين، وهو تعبير عن وحدة المجتمع

(١) الدكتور محمد البهي وعبد الفتاح طبارة.
(١) طبارة: روح الدين الإسلامي

والتقاء المسلمين مرة في العام في مهرجان كبير يتجه إلى الله بالتسبيح والتكبير من فوق شرفات جبل عرفات وهو في نفس الوقت عمل إجتماعي يدعو إلى الإلتقاء والتعامل ويمحي فروق الجنس واللون والوطن ويدعم الأخاء الإنساني ويوحد الغايات، ويؤكد وحدة الهدف حيث يتجه المسلمون إلى قبلة واحدة فضلا عما فيه من صبر واحتمال لجهد السفر ومشقة الانتقال في سبيل أداء هذه الشعيرة الكبرى.

وهكذا تترابط عبادات الإسلام ويتكامل طوال حياة المسلم: ليلها ونهارها، وعلى مدى أيامها وأسابيعها وشهورها المختلفة، تقوي فيه تلك الرابطة العميقة بين العلم والعمل، وبين الفرد والمجتمع، وكلها تقوم على مفهوم الإتجاه إلى الله والصبر والتضحية والبذل والاحتمال وتجميد النفس وتحرير الجسد من المطامع والشهوات، فتعطي طابع الحقيقة الأكيدة وهي أن الفرد المسلم لله أصلاً وأنه مؤهل بذلك كله ليكون خليفة الله في الأرض، وأن يكون دائماً على نية التضحية والجهاد وبذل الروح في سبيل الله وفي سبيل رسالة الإسلام.

وكما ربط الإسلام بين العقيدة والعبادة، ربط بين العلم والعمل، وذلك هو الإيمان. فالإقرار بوحدانية الله والعلم بمقاصد الإسلام ليس إلا منطلقاً إلى العمل ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾.

كذلك فهم المسلمون الأولون العلاقة بين العقيدة والعبادة

وبين العلم والعمل، وبين الإسلام والإيمان فالمسلم مطالب دائماً بأن يصل إلى مرتبة الإيمان ولا يقف عند مرتبة الإسلام وحدها وبذلك يشكل حياته كلها على النحو الصحيح: عقيدة صافية نقية، منطلقها عبادة لله ومعاملة صالحة للناس، قوامها التقوى وإقرار الحق وإقامة العدل وفق شريعة الله الخالصة.

ومن هذا المفهوم الصحيح الشامل كان منطلق المسلمون الأول إلى العمل ثم إلى النصر أو الشهادة في سبيل الحق الذي آمنوا به.

وعلى هذا المفهوم بنى الإسلام أجياله وربى أبنائه واصطنع الله منهم الشهداء واتخذ منهم التاريخ أبطالاً.

ووفق هذا المفهوم واجه المسلمون الحرب النفسية والغزو العسكري والثقافي جميعاً وحققوا دوراً ضخماً في بناء الحضارة والفكر الإنساني واستطاعوا أن يواجهوا مختلف التحديات: تحديات الصليبيين والتتار والإستعمار والصهيونية وما زال هذا المفهوم قادراً على أن يحقق لهم النصر الحاسم في معركتهم مع العدو على نحو أكيد فهم حيث جددوا أساليب المقاومة وطرائق المواجهة فقد حافظوا في نفس الوقت على أصول النصر ومصادره الأصيلة.

(٣)

كتاب منير

القرآن الكريم هو كتاب المسلمين الذي اعتصموا به منذ أنزله الله بالحق على محمد رسول الله يهديهم في كل معضلة ويضيء لهم طريق الحياة في كل أمر، فيه لكل قضية حل ولكل مسألة هدى وتوجيهاً ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾.

وهو حجر الأساس في بناء فكرهم ومجتمعهم، رسم لهم منهج حياتهم: وكشف عن طبيعة علاقاتهم أفراداً وجماعة من خلال مجالاتهم المختلفة:

سياسية وإقتصادية وتربوية وأقام لهم شريعة كاملة ونطاقاً متكاملا في علاقة المسلم بربه بالعبادة وعلاقته بالمجتمع بالمعاملة، وعلاقته بالحياة كلها بالأخلاق.

وإلى القرآن ترد جميع خيوط الوحدة والحرية والعلم:

فالقرآن هو الذي وحد العرب والمسلمين وأحدث التغيير الجذري في حياتهم وخرج بهم عن نطاق القبائل المتصارعة إلى الأمة الواحدة، **وحررهم من الرق والظلم والعبودية وفتح لهم**

افاق الكرامة والقوة وفتح لهم أبواب العلم والحضارة وأقام لهم دولة كبرى ونظاماً إنسانيا كان لا يزال موضع تقدير وإعجاب كل المصلحين والمنصفين.

ولقد فهم المسلمون على طول تاريخهم أن القرآن هو المصدر الأصيل لفكرهم ووجهة حياتهم عقيدة وشريعة وجهاداً: ولذلك كانوا يرجعون إليه ويلتمسون هديه في مختلف قضايا الفكر والحياة والمجتمع وأقاموه بينهم حجة لا تطرف عيونهم دون مقرراته وأحكامه. وهم لم يفعلوا ذلك عن إيمان موروث أو تقليد متداول، ولكنهم يفعلون ذلك عن اقتناع كامل، اقنعتهم به الملمات والأزمات والتحديات الخطيرة التي واجهتهم على الطريق الطويل، أنه لا سبيل للنصر واليقظة إلا بالاستمداد منه والتماس نهجه ورأيه وحكمه.

ولقد آمن المسلمون بأن القرآن هو كتاب الله المنزل من لدنه على قلب محمد رسول الله بالحق، وأنه منذ نزل إلى اليوم ـ وإلى أن تقوم الساعة ـ هو النص الموثق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأنه خاتم رسالات السماء، وقد جاء جامعاً للعقيدة والشريعة والأخلاق جميعاً مقيماً للانسانية منهجاً أصيلا للحياة ونظاماً للمجتمع، شاملا كاملا، يجد فيه المسلم أصول كل شيء.

وأبرز سمات القرآن في حياة المسلمين هو تحرير الفكر العقل من أساره، فقد دعا إلى البحث عن علل ما

تدركه حواسهم من الأحداث، وأقام الإيمان على أساس راسخ من الدليل والبرهان.

وتعد هذه الدعوة إلى حرية الفكر التي حمل لواءها القرآن من أكبر العوامل التي أنقذت البشرية من آسار العبودية والذلة وأحلت في الناس مبادىء التوحيد والعدل الاجتماعي والأخلاق. وكان لهذه الحرية أثرها في تطوير العلوم والمعارف.

وقد فهم المسلمون عن القرآن منهجه الذي رسمه الحق تبارك وتعالى للحياة وهو نهج يختلف عما كان للحياة قبل الإسلام من مفهوم وثني، وبه فتح الطريق بين الإنسان والله (تبارك وتعالى) خالصاً دون وساطة أو وصاية.

ودعا القرآن إلى الوحدة الإنسانية وأقام لأتباعه جميعاً وحدة واحدة على أساس العدل والحق لا تفاضل بين أفرادها إلا بطاعة الله، كما دعا إلى العمل وجعله أساساً للتقدم وربط الجزاء بالعمل وأقر العدالة.

كما رسم منهج الأخلاق وجعله قسيماً على كل القيم ومناهج الحياة.

وقدم للمؤمنين به منهجاً كاملا في الاجتماع والاقتصاد والقانون والتربية ونظم توزيع الثروة والعلاقات العامة بين الأفراد وبينهم وبين المجتمع وبينهم وبين الله.

أبرز ما دعا إليه القرآن هو دعوته إلى العقل والعلم والنظر في الكون فقد حث أهله على اقتحام علوم الفلك والطب والهندسة والرياضيات ومن هنا فقد كان القرآن هو الذي أنشأ المنهج العلمي التجريبي الذي هو أساس الحضارة الحديثة، وأن دعوة الله سبحانه وتعالى للمسلمين في القرآن: «قل انظروا ماذا في السموات والأرض» كانت فتحاً لهم دفعهم إلى اقتحام هذا المجال.

يقول العلامة محمد أسد (ليوبولد فايس): فبسبب ما حض القرآن أتباعه على إبتغاء المعرفة وتنمية المدارك ولد في أتباعه روح البحث وحب الإستطلاع والتقصي الحر، وهي الروح التي نتج عنها عصر الاكتشافات العلمية والبحث العلمي اللذين وضعا العالم الاسلامي في قمة شموخه الحضاري، تلك الحضارة التي احتضنها القرآن ورعاها حتى تغلغلت بطرق متعددة في عقل أوربا في القرون الوسطى وكان من ثمراتها الحضارة على الصورة التي نسجها على عصر النهضة.

ولقد كان القرآن مصدر دراسات الفكر الإسلامي والثقافة العربية فقد توالدت منه ألوان من العلوم والمعارف والثقافات وتوالت النظرات العلمية والاقتصادية والإجتماعية «وما من علم إلا وقد نظر أهله في القرآن وأخذوا منه مادة علمهم أو مادة الحياة له، وكان القرآن مصدر نشأة العلوم

العقلية والكلية وعامل تطورها وقد كانت آيات القرآن دافعة إلى البحث والعلم».

وقد وردت كلمة العلم ومشتقاتها في القرآن (٧٧٨ مرة) وحمل القرآن الدعوة إلى التفقه والتبصر والتذكر والتعقل، فكانت أكثر الألفاظ وروداً في القرآن حتى ليمكن القول بأن الدعوة إلى العقل والعلم من أهم الأسس التي أقام عليها القرآن رسالته العمرانية ودعوته الإجتماعية.

وقد حض القرآن على وجوب النظر في (النفس) والكائنات وكان ذلك تحريضاً على العلم في أصل التكوين ومنه توصل العلماء إلى معرفة علم الحياة.

وقد وجهت دعوة القرآن علماء المسلمين إلى الاستنباط في مجال العلوم ودفعتهم إلى التماس علوم البشرية مما سبقهم فلما وصلت إليهم لم تقبل على علاتها بل جرى تمحيصها ونقدها فأخذوا منها وتركوا وأضافوا وأنشأوا وابتدعوا الجديد فانشأوا منهجهم الخاص القرآني المصدر وقد رسم القرآن منهج المعرفة قائماً على العقل والقلب معاً وعلى المحسوس والغيب جميعاً، وعلى العلم والوحي جميعاً.

فالحجر الأساسي الذي يستمده الفكر الإسلامي من القرآن الكريم هو تكامل الجوانب العقلية والنفسية والمادية والعلمية ولا شك كان لهذه الحصيلة الضخمة التي ألقاها القرآن إلى البشرية أثرها العميق في مفاهيمها وهي المفاهيم

القائمة على التوحيد والحق والعدل في مواجهة مفاهيم الوثنية والظلم والشر وما يزال الصراع بينهما قائماً والنصر لكلمة الله آخراً.

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ ومفاهيم القرآن الربانية هي أساس دعوة الإسلام وهي القوة التي تمسك بها المسلمون دائماً فأمدتهم بالنصر والسيادة فلما انصرفوا عنها رماهم الله بالذل والضعف والتخلف حتى إذا عادوا إلى مفاهيم القرآن كرة أخرى كتب الله لهم النصر والشهادة.

ولقد كان القرآن مصدراً للحق والضياء للبشرية كلها فهو كتاب الله المنزل وهو النص الموثق الذي لم يتعرض للتحريف. والنص المعجز الذي بهر العرب وتحدى بلغاءهم أن يأتوا سورة من مثله، نزل خلال ثلاث وعشرين سنة في حياة الرسول وتم نزوله قبل أن يختاره الرفيق الأعلى.

وقد جرى تدوينه كاملا بإشراف رسول الله وتحت رقابته فسلم من كل ما تعرضت له الكتب المنزلة، وقد عجز خصوم الإسلام عن إتهام القرآن وقصروا عن إدعاء تحريف القرآن وقد نزل القرآن بلغة قريش وهي أفصح لهجات العرب وآيته البالغة أنه نزل بتراكيب لغة العرب ولكنه جاء مخالفاً لكلامهم في الطريقة والمضمون وإن وافقها في المادة والتركيب وهذا هو التحدي الذي واجههم حتى إذا عجزوا عن بلوغ مثله آمنوا بأنه منزل من عند الله.

ومن أعظم آثار القرآن الكريم في اللغة العربية أنه حفظها من الضياع وكفل لها الجدة وحرسها عبر الزمان ومكن لها البقاء كما نقاها من العجمة.

وقد أتاح القرآن للغة العربية أن تكون لغة الدين ولغة العلم، ولعل اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي ظلت على مدى أربعة عشر قرناً مرتبطة بمفاهيمها الأساسية دون أن يطرأ عليها أي تغيير فقد ظلت محتفظة بأسسها من كل تبديل، ودون أن يتناولها أي تغيير وسر هذا الصمود والثبات هو القرآن التي ظلت مقاصده حية على نفس الصورة التي نزل بها الوحي.

ويمكن القطع بأن القيم الأساسية للإسلام وفكره قد تكاملت بتمام نزول القرآن وفي حياة الرسول نفسه وأن هذه القيم ظلت كما قدمها القرآن دون أن يضاف إليها أو ينقص منها، وظل المصلحون ومصححو المفاهيم من عمالقة الفكر الإسلامي على طول العصور يكشفون الزيوف ويزيلون القشور التي حاولت ان تطغي على جوهر الإسلام وفكره المستمد من القرآن.

وفي نفس الوقت كان القرآن نفسه هو الذي مكن للفكر الاسلامي الطريق للانفتاح على الفكر الانساني يأخذ منه ويعطيه ويقبل منه ويترك وفق مقوماته الأساسية: وهي التوحيد والعدل والأخلاق.

(٣)

فهم المسلمون القــرآن فهماً صحيحــاً جــامعــاً للعقــائــد والفرائض والنظم والأوامر والنواهي والتشريع الجنائي والمدني والحربي وتبلغ آياته ٦٢٣٦ آية وتبلغ سوره ١١٤ سورة.

وقد تفرد القرآن بذاتية خاصة تختلف عن كلام النبي ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾.

وقد شمل القرآن ٧٦٣ آيــة تبحــث في المعــرفــة و ٧٤١ تبحث في الأخلاق و ٥١٢ آية أخرى هي بمثابة المظروف أو الصدفة التي تغلف تلك الجواهر على حد تعبير الإمام الغزالي.

وأبرز قضايا القرآن قضية التوحيد والإيمان بالله خالق كل شيء الواحد الأحد، والإيمان برسالات السماء الموجهة إلى البشرية وكتبه والإيمان باليوم الآخر والحساب والجزاء.

وقد جاء القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، مبيناً للناس ما اختلفوا فيه وهدى ورحمة للمؤمنين.

ومن هذا الإيمان بالبعث والجزاء والحساب كان منطلق القرآن بالمسلمين إلى تقديم النفس خالصة لله من خلال فريضة الجهاد.

ولا ريب ان تأثير القرآن على المسلمين لا ينقطع لأنه يحمل

الأحكام والمبادىء والحدود التي تتناول حياتهم الفردية والأسرية والإجتماعية والإقتصادية والسياسية: هذه الأحكام التي هي من المرونة وسعة الأفق والاحاطة بحيث استطاعت أن تقيم إطاراً عاماً لها يتحرك فيه المسلمون بالعمل والسعي والمتاع دون أن يخرجوا عنه.

(٤)

أسوة حسنة

ولقد كان للمسلمين دوماً أسوة حسنة وقدوة كريمة في رسولهم الكريم ونبيهم العظيم، الذي جاءهم بدين الحق، وأنزل عليه القرآن ومنه أخذوا خبرتهم وتجربتهم، وفهموا عنه كيف ينطلقون في مختلف ميادين الحياة.

قال سفيان بن وكيع: كان رسول الله دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب. قد ترك نفسه من ثلاث: الرياء والإكثار وما لا يعنيه وترك الناس من ثلاث: كان لا ينهر أحداً ولا يعيره ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيم يرجو ثوابه، وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا، لا يتنازعون عنده الحديث. من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم حديث أولهم، يضحك مما يضحكون، ويعجب مما يعجبون، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق ويقول: إذا رأيتم صاحب الحاجة فارفدوه. ولا يطلب الثناء إلا من مكافىء ولا يقطع على أحد حديثه.

* * *

وكان النبي ﷺ إذا صافحه إنسان لم ينزع يده حتى يكون هو الذي ينزع يده. وقال للرجل الذي أصابته رعدة عندما رآه:

هون عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد.

وعندما مات إبنه ابراهيم بكى فقيل له: أتبكي وأنت رسول الله قال: إنما أنا بشر، تدمع العين ويخشع القلب ولا نقول ما يسخط الرب وهو الذي قال لأبنته فاطمة: أعملي ما شئت لن أغني عنك من الله شيئاً، وكان إذا أقبل جلس حيث ينتهي به المجلس، وكان يمد طرف ردائه لحليمة السعدية لتجلس عليه ويلقي وسادته لضيفه ويجلس هو على الأرض، وكان له حصير يحتجزه في الليل فيصلي فيه ويبسطه بالنهار فيجلس عليه.

ولما جاء اليهودي يطالبه بدينه وقال: إنكم بني عبدالمطلب قوم مطل. وغضب عمر، قال النبي لعمر: أنا وصاحبي أحوج إلى غير هذا منك. مره بحسن التقاضي ومرني بحسن الأداء، ثم ألتفت إلى الرجل وقال:

- يا يهودي: إنما يحل دينك غداً.

ورد بني شيبان وكانوا يزيدون على الألف وهو في أول دعوته وفي حاجة إلى نصير واحد حين أرادوا المساومة.

وقال: لقد قلتم فأحسنتم القول، ورددتم فأجملتم الرد، ولكن دين الله لا يقبل إلا من أحاطه من جميع نواحيه.

وكان ﷺ يعود المريض ويتبع الجنائز ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار.

يقول علي بن أبي طالب: كنا إذا أشتد البأس وأحمرت الحدق أتقينا برسول الله فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ولقد رأينا يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي وهو أقربنا إلى العدو.

وقال أنس بن مالك: خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لي (أف) قط، وما قال لشيء صنعته لم صنعته، ولا لشيء تركته لم تركته.

وكان النبي إذا لقيه أحد من أصحابه قام معه فلم ينصرف حتى يكون هو الذي ينصرف، وإذا ما لقيه أحد فتناول يده ناوله إياها فلم ينزع يده حتى يكون الآخر هو الذي يدعها.

ويقول: إن الله يحب من أحدكم إذا خرج لإخوانه أن يتجمل لهم. وقالوا: كنا نعرف خروج النبي برائحة الطيب.

قال عدي بن حاتم الطائي: دخلت على رسول الله في مسجده، فانطلق بي إلى بيته فوالله إنه لعائد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف لها طويلا تكلمه في حاجتها، **قال: قلت في نفسي والله ما هذا بملك، ثم مضى بي حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً فقدمها**

إلي، وقال إجلس على هذه وجلس رسول الله على الأرض.

قال قلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك.

ثم قال النبي: أيه يا عدي بن حاتم، ألم تك ركوسياً. قلت بلى قال: أولم تكن تسير في قومك بالمرباع، قلت بلى قال: فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك، قال وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما لا نعلم.

ثم قال: لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ولعلك إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من كثر عدوهم وقلة عددهم فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى إن الملك والسلطان في غيرهم، فأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم قال فأسلمت.

وقد تحدث رسول الله ﷺ عن حياته قبل الرسالة فقال:

ما هممت بشيء مما يهم به أهل الجاهلية إلا مرتين من الدهر كلتاهما عصمني الله عز وجل منهما، قلت ليلة لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في غنم لأهله يرعاها: أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان قال نعم، فخرجت فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء

وصوت دفوف ومزامير فقلت ما هذا، قالوا فلان يزوج فلانة لرجل من قريش فلهوت بذلك الصوت حتى غلبتني عيني، فنمت فما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت فأخبرته، ثم فعلت الليلة الأخرى مثل ذلك فقال رسول الله ﷺ: ما هممت بعدها بسوء مما يعمله أهل الجاهلية حتى كرمني الله عز وجل بنبوته.

ولما اختلف أهل مكة بعد أن أعادوا بناء الكعبة في أي القبائل تفوز بالشرف في وضع الحجر الأسود مكانه من بناء الكعبة، وطال خلافها ارتضوا أول داخل من باب الصفا، فإذا به (محمد بن عبدالله) هنالك هتفوا جميعاً في صوت واحد: هذا الأمين رضينا، هذا محمد.

فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر، فقال: هلم إلي ثوباً، فأتي به، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده ثم قال:

لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم أرفعوه جميعاً ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ثم بني عليه.

وقد وصف جعفر بن أبي طالب أثر النبي ﷺ في أهل مكة وهو يتحدث إلى نجاشي الحبشة قال:

كنا قوم أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده

ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

(٢)

فهم المسلمون أن رسول الله هو الأسوة الحسنة، وأنه المثل الكامل الذي يتطلعون إليه ليجدوا عنده التجربة والقدوة، وقد عاشوا حياتهم، جيلا بعد أجيال يلتمسون منه البطولة والخلق والموعظة الحسنة فقد أوتي جوامع الكلم واختصرت له الحكمة اختصاراً، وكان رسول الله يحدث حديثاً لو عاده العاد لأحصاه وكان يعيد الكلمة ثلاثاً:

لا يقضين أحدكم بين إثنين وهو غضبان، لا يقيم أحدكم الرجل من مجلسه ويجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا، وإذا كان ثلاثة فلا يتناجى إثنان دون الآخر، يسلم الصغير على الكبير والمار على القاعد والقليل على الكثير، ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب.

لا يمل الله حتى تملوا، وأحب العمل إلى الله أدومه وإن قل، من سره أن يبسط له في رزقه وينشأ له في أثره فليصل رحمه، إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولأهلك

عليك حقاً. اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب. رحم الله رجلا سمى إذا باع وإذا اشترى. وإذا اقتضى. من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة. حق الطريق: كف الأذى وغض البصر ورد السلام وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها سوى ذلك «لقد هممت أن آمر رجلا يصلي بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأحرق بيوتهم».

إنما أحدكم مرآة أخيه فإذا رأى أذى فليمطه (يكشفه) عنه وإذا أخذ أحدكم على أخيه شيئاً فليقل: «لابك السوء وصرف الله عنك السوء».

إستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود.

الصلاة: أرحنا بها يا بلال، إذا صليت فصلي صلاة مودع لنفسه، مودع لهواه سائر إلى ربه.

ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق مما في يدك.

(٣)

وقد تركت لنا السنة المطهرة صورة وضاءة لرسول الله في مختلف مواقف الحياة.

يقول: أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً: فإيما رجل أدركته الصلاة فليصلي، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد من قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس كافة.

وكان النبي تنام عيناه ولا ينام قلبه وإذا نام لم يوقظوه حتى يكون هو الذي يستيقظ وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن آثماً.

وكان رسول الله يمزح ولا يقول إلا حقاً، جاءته يوماً عجوز فقالت: يا رسول الله: أدع الله أن يدخلني الجنة فقال لها: إن الجنة لا تدخلها عجوز. فانصرفت المرأة حزينة. فقال رسول الله لأصحابه: ردوها علي فلما جاءت قال: إن الجنة لا يدخلها عجوز، أما قرأت قول الله تعالى ﴿إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً﴾ فانطلقت أسارير المرأة.

وذهبت «فاطمة» تسأل رسول الله خادماً من الأسرى بعد أن أجهدها ما كانت تلقاه من مشقة قال رسول الله: ألا أخبرك بخير مما سألتيني: تسبحين الله دبر كل صلاة عشراً،

وتحمدينه عشراً وتكبرينه عشراً.

وعندما جاء العاصي بن الربيع خاطباً لابنته زينب قام النبي يسعى حتى دنا من غرفتها فوقف قريباً منها بحيث تسمع ولا تراه وقال:

« بنيتي زينب: إن بن خالتك أبا العاصي بن الربيع ذكر اسمك ». وعندما عاد العاصي من رحلته إلى المدينة واعتقله المسلمون، ذهبت زينب إلى باب المسجد، ثم صاحت ملء صوتها: أيها الناس: إني أجرت العاص بن الربيع فلما سلم النبي من صلاته قال:

هل سمعتم ما سمعت. قالوا: نعم قال أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم. وإنه ليجير على المسلمين أدناهم وقد أجرنا من أجارت.

ثم انصرف النبي فدخل على إبنته وعندها ابن خالتها وهو زوجها فانتحى بها ناحية وقال:

ـ أي بنية: إكرمي مثواه ولا يخلصن إليك، فإنك لا تحلين له.

قالت عائشة: إن النبي لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة وأقبلت هالة اخت خديجة لزيارة المدينة وسمع النبي صوتها في فناء بيته وكان يشبه صوت الراحلة فهتف يقول: اللهم هالة.

فقال عائشة: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش.

فغضب النبي وقال: والله ما أنت بخير منها، ووالله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي حين كفر الناس وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء فجزاها الله عني خير الجزاء، اللهم كافىء خديجة بنت خويلد.

وعن صفية زوجة النبي أنها جاءت إلى رسول الله تزوره في اعتكافه بالمسجد في العشر الأواخر من رمضان فتحدثت عنده ساعة ثم قامت تنصرف فمضى النبي معها، حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة، مر رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله؛ فقال لهما النبي: على رسلكما، هذه صفية بنت يحيي، فقالا: سبحان الله يا رسول الله!! وكبر عليهما ذلك.

فقال النبي: إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم وأني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً.

وروي أن النبي صلى فأطال السجود فلما قضيت الصلاة قيل له: يا رسول الله أنك سجدت سجدة أطلتها حتى ظننت إن قد حدث أمراً وأنه يوحي إليك فقال: كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني فكرهت ان أعجله حتى يقضي حاجته.

وروى الطبراني عن ابن عباس:

قال النبي لأم هاني بنت أبي طالب صبيحة فتح مكة وكان قد نزل في بيتها

ـ هل عندك طعام نأكله.

قالت: ليس عندي إلا كسر يابسة وأني لأستحي أن أقدمها إليك.

قال: هلمي بهن. فكسرهن في ماء وجاءت بملح فقال:

ـ هل من أدم قالت: ما عندي يا رسول الله إلا شيء من خل.

قال هلميه: فصبه على الطعام فأكل منه ثم حمد الله تعالى.

وقال أحد الوافدين: أنت سيدنا. قال: السيد الله، قولوا قولكم ولا يستجرينكم الشيطان وفزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم عليه السلام راجعاً قد سبقهم إلى الصوت وقد استبرأ الخبر على فرس عري لأبي طلحة والسيف في عنقه.

وهو يقول: لن تراعوا، لن تراعوا.

ولما أثار عبدالله بن أبي سلول الفتنة بين المهاجرين والأنصار بعد قتال بني المصطلق: وبلغ النبي فأشار عمر بقتل ابن أبي.

فقال النبي: كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه فلما جاءه ابن عبدالله ابن أبي وكان مسلماً يقول:

ـ إن كان لا بد أمراً بقتل أبيه فإنه يتولى هو قتله.

فقال الرسول: بل نترفق به ونحسن صحبته.

وعندما خص النبي «المؤلفة قلوبهم» من قريش ببعض الغنائم في غزوة حنين قال بعض الأنصار:

ـ لقي رسول الله قومه.

فدعاهم النبي إلى حظيرة سعد بن عبادة وقام فيهم خطيباً فقال:

ـ يا معشر الأنصار، ما قاله بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها على أنفسكم، ألم آتكم ضلالا فهداكم الله. وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف بين قلوبكم. إما والله لو شئتم لقلتم وصدقتم وصدقتم:

آتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولا فنصرناك وطريداً فآويناك، وعائلا فآسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار اللهم إرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.

(٤)

فهم المسلمون الأول رسولهم الكريم: قائداً وهادياً ومرشداً وهو نبيهم خاتم الأنبياء، وهو في نفس الوقت حاكمهم. ومؤسس أمتهم، وبانيا لدينهم وإنه انزل عليه القرآن وقد رسم رسول الله للمسلمين منهج الحياة فكان تطبيقاً للإسلام نظام حياة وللقرآن خلقاً وسلوكا. كان محققاً لإرادة الله في الجهاد أقام مجتمع الإسلام وحرر المسلمين من أهواء الجاهلية ووضع ربا الجاهلية وأكد دوما أنه بشر رسول يوحي إليه وأنه ليس ملكا ولا معبوداً.

وقد فهم المسلمون أنه نبي مرسل مؤيد بالوحي، وأنه ليس عبقرياً ولا بطلا ولا زعيما على نحو ما يحاول أن يصوره بعض الكتاب فإن خصائص النبوة هي أبرز خصائصه.

وكان أعظم مقرراته يتمثل في قوله لأسامة وقد جاء يشفع في إقامة الحد حين قال له: أتشفع في حد من حدود الله، والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها. إنما أهلك من كان قبلكم إنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد.

وقد عرف عنه خصيصة التواضع والبساطة: الثوب الرقيق والحصير الذي أثر في جنبه قالوا له: كسرى وقيصر فيما ترى فهلا جعلنا لك وطاء من ليف.

فيقول: مالى وللدنيا إنما أنا كراكب، أستظل تحت ظل شجرة ثم راح فتركها.

يقول (دنكان بلاك ونالد) في محاضرة بجامعة شيكاغو عام ١٩٦٦ إن الشخصية المحمدية لا تزال بعد أربعة عشر قرنا هي مصدر المدد المتصل في تقوية المسلم.

ويقول (ستاندر أن سترايتر): عندما نستعرض التاريخ الطويل لأفريقيا نجد أن الشخصية الرئيسية التي تلعب الدور الرئيسي في معادلة المنهج السياسي ليست هي فلان وفلان ولكنها شخصية محمد. الذي كان يعيش في مكة منذ حوالى ألف وأربعمائة عام وقد أصبح الإسلام واحداً من العناصر المؤثرة التي تقف وراء الحركات الوطنية، فالإسلام هو الجبل الأشم الوحيد الذي تنحطم عند سفوحه موجات الأطماع الاستعمارية في أفريقيا.

إن الخطر الحقيقي ضد السيطرة الإستعمارية إنما يكمن في الإسلام.

ويقول: بورند بلسوث سميث:

كان محمد في وقت واحد مؤسساً لأمة ومقيماً لدولة وبانياً لدين، قد لا نعلم من سير الأنبياء إلا شذرات اما الإسلام فأمره واضح، ليس فيه سر مكتوم عن أحد ولاغمة ينبهم أمرها على التاريخ ففي أيدي الناس تاريخه الصحيح»

إن المسلمين يعلمون جيداً أن معرفة شمائل النبي محمد ﷺ وتطبيقها على حياتهم ومجتمعهم هي عامل هام من العوامل التي انتصروا بها على مدى التاريخ ولقد كان أبطالهم ينظرون إلى محمد ﷺ نظرتهم إلى القائد والزعيم والأسوة حسبما جاء القرآن يأمر المسلمين:

﴿لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة﴾

(٥)

شريعة عادلة

وآمن المسلمون بأن لهم شريعة عادلة ترسم منهج الحياة في مختلف أصولها وفروعها وشريعة الإسلام هي الأصول الثابتة التي لا تتغير من صنع الله وقد بنيت فيها الأحكام على المقاصد والمصالح في واقعها وفي تغيرها بتغير الزمان والمكان، والحق تبارك وتعالى هو الشارع والمقنن وقد أقام بالشريعة إطاراً عاما وحدوداً أخلاقية يتطور المجتمع ويتحرك في نطاقها، تاركاً للأجيال المتوالية تحقيق متطلبات العصور في ظل تغير الظروف الإجتماعية عن طريق الفقه.

وقد كان المسلمون دائماً وفي كل عصر وتحت أي ضغط قادرون على إلتماس شريعتهم في مناهج حياتهم وتنكب طرائق الغير وأساليبه ومنها إستمدوا دائماً قوتهم على مواجهة التحديات.

وقد قام بناء أحكام الفقه الإسلامي على أساس الموضوعية والتحرر من كل دافع من عصبية أو عاطفة خاصة، سوى

فكرة العدل والحق المجرد بقطع النظر عن اللون والجنس والبيئة.

وقد جمعت الشريعة الإسلامية بين طرفي الواقعية والكمال فهي تنظر إلى واقع الناس وتستجيب لحاجتهم وتلبي الضرورات التي تحدث لهم، دون أن تهمل العادات والنظر إليها على نحو يحكم وحدة المجتمع وهي تبيح المحظورات عند الضرورة وتقوم على مصالح الناس ودفع الضرر ويجعل الأصل في الأشياء الإباحة.

وقد عرف المسلمون أن الشريعة الإسلامية شريعة أخلاقية وتربوية تجعل من القوانين مثلا عليها تكفل تحريك الضمير بعد تربيته ليكون حارساً أميناً على تطبيقها وهي قبل ذلك كله وبعده ملزمة لأنها من صنع الله، تبارك وتعالى الذي ترد إليه كل الأمور.

وقد جاءت الشريعة الإسلامية مطابقة لتشكل الإنسان ملائمة لطبيعته موازنة لنوازعه ومزاجه النفسي والاجتماعي فهي لا تتعارض مع هذه الطبيعة ولا تناقض المطالب الأساسية للمجتمع البشري، وقد بنيت على جلب المنافع للناس ودرء المفاسد عنهم وهي في أصولها العامة لا تعارض سنة النشوء والتطور، بل تماشي التقدم البشري والحضارة في كل زمان ومكان.

وتقوم الشريعة الإسلامية في أسسها العامة ومبادئها الكلية

على دفع المشقة وتقليل التكاليف ورعاية المصالح جميعاً وتحقيق العدالة الشاملة، وعدم الحرج حيث لا ضرر ولا ضرار وقد حرمت في أصولها الزنا والخمر وحرمت القتل بدون حق، وحرمت أكل مال الناس بالباطل وكان من أبرز مناهجها إحلال البيع وتحريم الربا.

وفي كل ما حرمته الشريعة لم تقصد به ناحية تعبدية صرفة وإنما قصدت به منفعة الفرد، وحمايته وتعزيز شخصيته بالقوة والحيوية والقدرة على مغالبة خصومه ومواجهة التحديات.

وقد أقامت ذلك كله في إطار واسع يمكن من الحركة والعمل، فقد رسمت الشريعة حدود الدائرة التي يتطور في نطاقها المجتمع الإسلامي وتركت للمجتهدين من الأئمة معالجة الفروع.

وقد استطاع الفقهاء أن يستنبطوا من التشريع الإسلامي مبادىء كثيرة هامة منها نظرية التعسف في استعمال الحقوق فاثبتت أنه يجب منع الفعل المأذون به شرعاً إذا لم يقصد منه فاعله إلا الاضرار بالغير.

وكذلك مبدأ العقاب بالتعزير وهو أن يترك تحديد العقوبة إلى القاضي يحكم بها تبعا لما يصح لديه من ظروف كل جريمة ولحالة المجرم ونفسيته.

كما تفردت الشريعة الإسلامية بأنظمة لم يعرفها العالم الحديث الا منذ وقت قريب كنظام الحسبة وقد سبقت

الشريعة القوانين الحديثة في تقرير المبادىء العظيمة ومنها مبدأ إستعمال الملكية بلا إجراءات مركبة أو شكلية لمجرد الإتفاق مبدأ سلطان الإدارة (أي إدارة كل من المتعاقدين).

وقد قام الفقه الإسلامي على قاعدة أساسية من الشريعة الاسلامية هي وجوب الإجتهاد وتحريم التقليد ومن هنا اختلفت المذاهب حول الفروع والتفصيلات وليس في المبادىء الأساسية.

واستهدف ذلك كله محاربة الجمود والخرافات والبدع، وحقق ما تستهدفه الشريعة من تحرير العقول من كدر الخرافات وصدأ الأوهام.

وقد آمن من المسلمون بأن الشريعة الإسلامية تعتبر الفرد نفسه وكل ماله من حقوق ملك لله وحده، وأن الله لم يمنح لخلقه ما منحهم إياه من حقوق إلا لغرض كريم هو تحقيق الخير للفرد والمجتمع جميعاً ومن هنا فكل النظم والضوابط التي شرعت إنما استهدفت تهذيب الفرد وتحقيق ما فيه الخير له وللمجتمع.

وقد ربطت الشريعة الإسلامية الدين بالدولة، والدنيا بالآخرة، والعقل بالقلب، والفرد بالمجتمع. وقررت مبدأي الاجتهاد ورعاية الأصلح بحيث تجد لكل ضرورة حكماً يوافق مقتضى المصلحة والحال.

ولقد كان المسلمون في مختلف مواقفهم الحاسمة وتحديات

العدو يلتمسون أصولها ويطبقونها تطبيقاً صحيحاً ويدافعون عن ما يوجه إليها من شبهات.

ومن أبرز هذه الشبهات أن الدولة الإسلامية كانت دولة ثيوقراطية وهي تهمة باطلة، ذلك إنه لم يقم في تاريخ الإسلام كله مثل هذه الدولة التي عرفتها أوربا في القرون الوسطى عندما سيطر رجال الدين على السلطة السياسية.

ولذلك لا وجود في الاسلام للكهانة ولا لطبقة ممتازة تدعى طبقة رجال الدين ولهذا يستحيل أن توجد في الاسلام [1].

والشريعة الاسلامية بعد هذا كله تجمع بين عنصري الاستقرار والتطور وتوفق بينهما توفيقاً بديعاً فنياً، فبينما تجد في هذه الشريعة نصوصاً تنزل إلى التفصيلات وتنأى عن التأويل والتغيير والتبديل كنصوص المواريث والحدود والكفارات نرى نصوصاً أخرى تبيح للمشرع أن يبتدع أحكاماً في غير الحالات التي جاءت بها النصوص القطعية، ما دام الأمر يحقق مسألة عامة للمسلمين وأظهر مثل لهذه النصوص المرخصة: المصالح المرسلة، والاستحسان بالضرورة وقياس ما لم يرد فيه نص على ما ورد فيه نص.

ولعل الشريعة الاسلامية هي الشريعة الوحيدة في الدنيا التي

---

(١) محمد أسد (على مفترق الطرق)

تطورت بوسائل داخلية دون أن تستعير نصاً من خارج نصوصها أو حكماً غير مستنبط من أحكامها وكل القوانين الشرائع تطورت بوسائل خارجة ما عدا الشريعة الإسلامية [1].

وقد اعترفت الدوائر الغربية في السنوات الأخيرة بهذه الحقيقة بعد أن أعرضت عنها زمنا وأشارت مؤتمرات القانون الدولية في لاهاي وغيرها سنوات ١٩٣٢/١٩٣٧:

ان الشريعة الاسلامية (١) مصدر مستقل للقانون المقارن ومصدر عالميّ للقانون ومصدر من مصادر التشريع العام.

(٢) صالح للتطور.

(٣) تشريعاً قائماً بذاته ليس مأخوذاً من غيره.

وأكد كثير من الباحثين المنصفين أن في الشريعة الاسلامية عناصر لو تولتها يد الصناعة فأحسنت صناعتها لصنعت منها نظريات ومبادىء لا تقل في الرقي والشمول وفي مسايرة التطور عن أخطر النظريات الفقهية الغربية.

---

(١) دكتور محمود القاضي: دراسته عن الشريعة الاسلامية.

(٦)

أخلاق إيجابية

من أبرز مقاصد الاسلام التي كانت عاملا كبيراً من عوامل القوة والنصر: «الأخلاق» وما تزال هي الميزان الحقيقي والمؤشر الصادق لسلامة المجتمع الاسلامي. وقد فهم المسلمون أن الأخلاق هي مصدر القوة والحركة والصمود.

والأخلاق في مفهوم الاسلام: أخلاق ربانية مصدرها القرآن، وهي أخلاق عملية تطبيقية لها طابعها الخاص الذي يختلف عن طوابع الأخلاق النظرية الفلسفية عند اليونان والهنود والفرس.

وهي لذلك قائمة ثابتة تتشكل النفس الانسانية عليها وتستجيب لها وهي مرتبطة ارتباطاً جذرياً بالحضارة والعلم والاجتماع والسياسة والقانون فإذا انفصلت هذه العناصر عن الأخلاق كان ذلك مصدر فسادها ودمارها وانهيارها.

والأخلاق هي أخذ العناصر الكبرى التي يقوم عليها الإسلام إلى جوار العقيدة والشريعة، وهي في مفهوم الاسلام

قاسم مشترك على كل القيم.

وهدف الأخلاق في مفهوم الاسلام: «التقوى» وتتمثل التقوى فيه عملا وسلوكا ولا تقف عند الناحية النظرية وحدها بل تتعداها إلى العمل والتطبيق شأن مفهوم الاسلام نفسه: عقيدة وعمل.

وتقوم الأخلاق في الاسلام على الايجابية البناءة: الاقبال على الحلال وتجنب الحرام والعمل في حركة دائبة دون الترف والتحلل ودون الرهبانية والنسك.

وتعني التقوى في مفهومها الأصيل: الوقاية ومدافعة الخطر واليقظة الدائمة للمحافظة على الأصول ومنعها من الانحراف.

وتحث آيات الأخلاق في منهج القرآن على الايثار دون الاثرة، وتجعل الفرد في خدمة المجتمع فإذا تعارضت مصلحته مع مصلحة المجتمع كان على الفرد أن يضحي بمصلحته في سبيل المجتمع، وهذا هو مفهوم الإيثار.

وليس مفهوم الأخلاق الاسلامية إمتداد لمفهوم الفلسفات، وإنما هي إمتداد لمفهوم الأديان المنزلة الجامع، وإتماماً لها وإستكمالا، إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

وقد نشأ مفهوم الأخلاق في الاسلام نشأة متميزة خالصة، فحول مفاهيم العرب للقيم الأخلاقية عن انحرافها الوثني وردها إلى الوجهة الصحيحة الصادقة الخالصة لله وحده.

ولقد فهم المسلمون الأول « الأخلاق » فهماً ربانياً مستمداً من القرآن الكريم ومن تطبيق الرسول لها بحياته وشمائله وتصرفاته « كان خلقه القرآن » وهي أخلاق إيجابية تقوم على رقابة الله وتقواه في مختلف التصرفات وتدخل كعنصر أساسي في الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية ولا تنفصل عنها وتستمد كيانها من التوحيد أساساً فلا تنعزل عن الاسلام بل ترتبط به.

وهي أخلاق تقوى إجتماعية تحمل طابع الإيثار والتضحية بمصلحة الفرد لمصلحة المجتمع وهي أخلاق قوة وعمل مع المحافظة على رقابة الله وإعلاء فضائل الخير والبر والوفاء.

(٢)

فهم المسلمون الأول « الأخلاق » على أنها التقوى في مختلف مجالات الحياة في يقظة ضمير تحول دون الرذيلة واجتناب المحارم. دون اعتزال للمجتمع أو وقوع في أسر أخطار التقشف والنسك.

والحرية في الأخلاق الإسلامية ليست الانطلاق وراء الشهوات، وإنما هي المباح في أصوله وقواعده الشرعية بحيث تنتهي حرية المسلم عندما تصبح اعتداء على حرية الآخرين.

---

(١) الدكتور أحمد الحوفي (من أخلاق النبي) والدكتور أحمد فؤاد الاهواني

ولا ريب أن ضوابط التصرفات التي أقرها الاسلام هي الضمان الأوفى لكرامة الجماعة وتنظيم حرية الأفراد، فهي تعلي حرية المجتمع على حرية الفرد.

وفهم المسلمون الأول أن أخلاق الإسلام ليست مثالية نظرية، بل واقعية عملية تستمد قيمها من صميم واقع الإنسان بحسبانه خلية من خلايا المجتمع، وهي تتحقق على مستويين: فردي إجتماعي.

وفي كلاهما تؤكد حرية الإنسان وإرادته في الاختيار وتحمل المسئولية فالفرد مسئول عن عمله، واع لشخصيته، محقق للنفع العام للمجتمع بأسره.

وقد أضاء القرآن للمسلمين المفهوم الأصيل للأخلاق في جانبي المعرفة والسلوك وفي القرآن ٧٤١ آية في السلوك والتطبيق العلمي وجملة الآيات التي رسمت منهج الاسلام في الأخلاق (١٥٠٤) آية وهي تمثل ما يقرب من ربع آيات القرآن.

وقد قامت الأخلاق الاسلامية على الجمع بين الدنيا والآخرة. فهي ليست في عزلة عن الحياة أو إعراض عنها، ولكنها في الواقع عمل ومع العمل إمتحان بالتقوى في كل المواقف والأحداث والاتصالات مع الناس ومع مغريات الحياة كالمال والملذات والطعام.

فالاسلام لا يقر العزوف عن العمل والتهالك على العزلة

وترك أسباب الحياة الاجتماعية أو تغليب العاطفة والوجدان في التصرف والأحكام، وإنما يقر العمل والحركة مع جهاد النفس دون الظلم أو الافساد أو الانحراف أو تغليب المطامع الشخصية.

والمقياس دائماً هو التوسط والموائمة، من خلال حركة دائبة مع طوابع الخلق الإيجابي الكريم، إيماناً بالله وخشية لله واعتماداً عليه وثقة في عطائه ورزقه وحمايته.

وقوام الأخلاق في الاسلام (في مجال الإيجاب) الاستقامة وتزكية النفس والصدق والصبر والعفو والاحسان والتعاون والايثار وأداء الأمانة إلى أهلها والحكم بين الناس بالعدل وإيتاء المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهد.

وفي نفس الوقت تقوم الأخلاق الاسلامية على النهي عن المنكر والغرور والصلف والكذب والغيبة والكبرياء والبخل والإثم.

وقد فهم المسلمون والأولون: ان ضرورة الانسجام بين العقيدة والسلوك هو دليل صدق العقيدة وسلامتها.

وبالجملة فإن الأخلاق الإسلامية: «إيجابية»، «شاملة للناس جميعاً»، «وسطية بعيدة عن الانحراف والجمود»، وإجتماعية وفردية في نفس الوقت وهي تنظر إلى الفرد في

ضوء مصلحة المجتمع فاذا تعارضت مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع «آثر» الفرد مصلحة المجتمع وضحى بنفسه في سبيل المجموع.

فهي أخلاق إيثار وتقوى تتجنب الحرام بالإقبال على الحلال.

وهي تختلف بذلك عن مذهب أصحاب اللذات وأصحاب النسك. وتتمثل الأخلاق الإسلامية أبرز ما تتمثل في «التطبيق النبوي».

وأمر الإسلام في الأخلاق أمره في الشريعة: أقام إطاراً واسعاً رحباً يحقق الحرية الشخصية ومطالب النفس والجسد جميعاً في حدود دائرة الاعتدال وعدم الاعتداء على حقوق الآخرين، أما الضوابط التي أقرها كقواعد أخلاقية فقد أقام بها حواجز متينة ضد الظلم والإثم والإباحية.

وقد أتاحت هذه الضوابط مع رحابة الإطار: قدرة كاملة على الحركة والاختيار والتماس زينة الله التي أخرج لعباده من طيبات الرزق وإرضاء كل المطالب.

وقد ارتبطت الأخلاق في الإسلام بالدين إرتباطاً عضوياً فليس هناك أخلاق إسلامية منفصلة تقوم على الضمير أو تتشكل خارج الإسلام ككل.

وقد أعلن الإسلام الالتزام الخلقي وكشف عن أن النفس

الإنسانية عرفت منذ تكوينها الأول: معنى الخير والشر: ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾.

ولا ريب أن الفلسفات التي تدعو إلى إلغاء فكرة الالتزام الخلقي تدمر البناء الانساني كلية وتتعارض مع مفهوم الإسلام صانع أرقى وأوثق نظرة إلى الانسان تحقق ذاته ووجوده في إطار الحق.

ذلك أن انعدام الالتزام من شأنه أن يقضي بانعدام المسئولية فإذا انعدمت المسئولية ضاع كل أمل في وضع الحق في نصابه وإقامة أسس العدالة.

وحين يقر الإسلام الخير الخلقي كسلطة ملزمة يتقيد بها الجميع، فإنه يعرف قدرة النفس الإنسانية واستطاعتها فهو يضع قاعدة أخرى هي: «فاتقوا الله ما استطعتم» بحيث يمكن التوفيق بين أمر الله ومقتضى للواقع ويجمع بين الاتجاهين: وفق ضوابط فيها عنصر الاستطاعة، وفي ذلك منتهى الرحمة في مواجهة الضرورات ويبدو هذا المعنى واضحاً في سماحته في قوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم﴾.

ومن هنا تأتي المغفرة بعد التوبة ويأتي ذلك التحذير الواضح:

«دع ما يريبك إلى مالا يريبك:». «وإن الحلال بيّن

والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه» وإن الكذب ريبة والصدق طمأنينة، وإن الإثم ما حاك في النفس وكرهت أن يطلع الناس عليه والبر ما اطمأنت إليه النفس.

فالإلزام الخلقي أيضاً في الإسلام له قاعدته الثابتة وله آفاقه الفسيحة مع استفتاء القلب، والتوبة، وتجاوز الخطأ إلى الصواب.

وقوام الأخلاق في الإسلام: الحرية والاختيار فلا أخلاق بلا حرية كما أنه لا تكليف بغير اختيار، والإرادة حركة داخلية نفسية صرفة، لذلك يقرر الإسلام أن المكره إذا فعل ما يكره عليه كان له عذره وقد سمى الإسلام (حرية الإرادة): باسم الكسب والاختيار وجعلها مناط التكليف ومدار العمل الخلقي[1].

هكذا بنى الإسلام الأخلاق على العمل، وعلى التوسط والاعتدال، وعلى الالتزام في حدود الاستطاعة، هكذا فهم المسلمون الأخلاق فقام بناؤها في نفس المسلم قوياً متيناً، ومن هذا المفهوم للأخلاق نشأت تلك النماذج القوية الصامدة التي عرفت في الإسلام باسم الأبطال والشهداء والأبرار الذين قدموا أرواحهم سخية في سبيل الله، وعاشوا مثلا عالياً، في الكرامة والوفاء.

(٧)

جهاد في سبيل الله

ولقد آمن المسلمون من الرعيل الأول وجيلا بعد جيل، أن الجهاد في سبيل الله فريضة قائمة إلى يوم القيامة لا سبيل إلى تعطيلها أو الإنصراف عنها وأن المسلمين في كل مصر وعصر مدعوون إلى إقامتها على وجهها، رباطاً في الثغور، وإعداداً للنفوس والأجسام، وتدريباً على الصبر والصمود، وأقلاماً مشرعة في سبيل الرد على الشبهات وقلوباً مؤمنة بالموت في سبيل الحياة. ومعاهدة قائمة بين المسلم وربه على أن يجاهد بالقول والفعل ما وسعه ذلك «من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بغزو مات ميتة جاهلية».

ولقد أخذ الله على المسلمين العهد أن يكونوا قائمين بالحق، صامدين في وجه الأخطار والأحداث والتحديات حياتهم كلها.

فالجهاد لغة هو بذل الجهد واستنفاذ القوى في أي أمر من الأمور، وهو في مفهوم الإسلام إنما يعني بذل الجهد وإعلاء

كلمة الإسلام بما يملك المسلم من المال والنفس والعلم واللسان.

وقد علم المسلمون كيف أنذر الله الذين يتركون الجهاد بذل لا ينزع عنهم إلا إذا عادوا إلى الجهاد. وعلموا كيف أن الأمة التي تتأهب وتعد وتضحي ببعض مالها وبعض رجالها تنتصر والتي تتحامى الجهاد تجلب الذلة والفناء لكل الرجال وكل الأموال.

فالجهاد هو الأسلوب الذي شرعه الإسلام لمواجهة الخطر الذي يدمر كل الحضارات: خطر الرفاهية والترف والإنحلال.

ولقد كان المسلمون كلما واجهتهم الأحداث والتحديات عادوا يصححون مفهومهم للجهاد والتمسوا الثقة بالنفس والحيلولة دون كل ما يهدمها من شبهات تجنح بها إلى الذلة أو القضاء على روح اليأس والضعف والخور والتخاذل والرخاوة وذلك ببناء الأجيال الصاعدة من جديد.

ذلك لأنه لا سبيل لأن يستطيع المسلمون بعث العزائم ولقد حاولوا خلال أزمات التاريخ المتصلة، فلم يجدوا سبيلا إلى ذلك من دون الجهاد فعجزوا ولقد صدق رائدهم حين قال: إنه لن يتم للمسلمين ولا لأمة من الأمم نجاح ولا رقي إلا بالتضحية والتحريض على الجهاد بالمال والنفس.

ولقد حاول الإستعمار أن يعلمنا أننا لا نقوى على النصر إلا بالسلاح المادي وحده وهذا هو ما خلق الخوار في النفوس وأدخل اليأس إلى القلوب ولو عرف المسلمون في هذا العصر

لعلموا إن المسلمين في كل عصر من عصور التاريخ لم ينتصروا بالتفوق في العدد أو العتاد ـ وإن حاولوا أن يحصلوا على أرقى ما يكون من أساليبه وأدواته فقد كان إيمانهم بالله إيماناً صحيحاً من العوامل الأساسية في إحراز النصر أو رد العدوان ولقد كان المسلمون يؤمنون بأن المسلم سيد نفسه ولا يكون أحداً ما، أعلى منه أو سيداً له، وإنه بالإسلام أقوى سنداً وعضداً.

ولقد حاول خصوم المسلمين في مجال الأزمات والتحديات أن يروجوا نظريات التقاعس والتشكيك في القدرة وفي الإرادة، وإن المسلم حين يؤمن إيماناً صادقاً بربه، وكتابه، ويعيش في «مناخ» التصور الإسلامي للكون والحياة والمجتمع فإنه يحس بالعزة والرجولة والاستعداد للفداء في سبيل الحق الذي يؤمن به، ولا يذل ولا يستسلم ولا يخضع.

ومن هنا كان مفهوم الإسلام الذي عرفه المسلمون وآمنوا به وطبقوه «إنه إذا دخل العدو أرض المسلمين فإنه حينئذ يتعين على الجميع أن يهبوا لملاقاته ودفعه لا فرق بين رجل وإمرأة ولا بين خادم ومخدوم؛ ويرتبط هذا الواجب بأهل المحلة التي نزل العدو أولا ويمتد لمن جاورها إذا احتاجوا لعونه وللمسلمين كافة إذا لزم الأمر فتخرج المرأة دون إذن زوجها والعبد دون إذن سيده، والولد من غير إذن والديه والمدين دون إذن دائنة»[1].

(١) مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر وبلغة السالك لأقرب المسالك.

ولقد عرف المسلمون وآمنوا بأن الإسلام دين وضع أساسه على طلب الغلب والشوكة والافتتاح والعزة ورفض كل قانون يخالف شريعته، ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها، فالناظر في أصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل يحكم حكماً لا ريبة فيه بأن المعتقدين بها لا بد أن يكونوا أول ملة حربية في العالم وأن يسبقوا جميع الملل إلى اختراع الآلات الفاتكة وإتقان العلوم العسكرية والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكيمياء وحمل الأثقال والهندسة ومن تأمل في آية ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ أيقن أن من صبغ هذا الدين فقد صبغ بحب الغلب وطلب كل وسيلة إلى ما يسهل سبيلها والسعي إليها بقدر الطاقة البشرية فضلا عن الاعتصام بالمنعة من تغلب غيره عليه»[٢].

(٢)

ولقد عرف المسلمون أن عوامل النصر في الإسلام تجمع بين العقيدة والإعداد المادي[١]، وأن الإعداد المادي (تنظيماً وتسليماً وتجهيزاً وتدريباً وقيادة) لا يكفي وحده للنصر ما لم تصاحبه عقيدة صحيحة تقوم على أساس الإيمان بحقيقة أساسية هي:

---

(١) الإسلام والنصرانية في العلم والمدنية للامام محمد عبده.

(٢) اللواء محمود شيت خطاب: إرادة النضال في الإسلام.

« أطلب الموت توهب لك الحياة ».

فقد بنى الإسلام المسلم على الإيمان بأن الإسلام عقيدة وعمل والمؤمن حقاً لا يخشى الموت: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ فهو يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الآجال بيد الله سبحانه. وهو لا يخاف قوات للعدو الضاربة مهما كانت متفوقة في العدد أو العتاد أو أساليب الحرب، فهو يؤمن بقانون ثابت: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين﴾.

والمؤمن لا يقر بإنتصار أحد عليه ما دام في حماية عقيدته، والمؤمن لا يستسلم بعد الهزيمة.

وقد آمن المسلمون بأن المسلم الحق يتحلى دائماً بإرادة القتال: القائمة على معادلة واضحة: هي « النصر أو الشهادة »: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً﴾.

وآمنوا بأن الله يعطي النصر للمؤمنين من المسلمين وقد علموا بالتجربة أن الله لا ينصر المسلمين الذين لا يطبقون تعاليمه تطبيقاً كاملا في حياتهم. أو المسلمين الذين يقبلون الإسلام دون أن يتحملوا تبعاته في العمل وتكاليفه في الجهاد.

وقد أكدت وقائع التاريخ أن المسلمين الأولين لم يكونوا ليعرفوا اليأس أو القنوط من رحمة الله ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾.

ولقد كان الجبن والهلع واليأس والقنوط من أخطر ما واجه المسلمين عندما فصلوا الإسلام عن الإيمان والعقيدة عن العبادة والأخلاق عن الحياة، والشريعة عن المجتمع.

وحاول عدوهم أن يسلط عليهم حملات متصلة لا تتوقف من أسباب الخوف والحرب النفسية، وحب الدنيا وكراهية الموت، والاستذلال للمطامع والمتارف فأصاب نفوسهم بالإنحلال والرخاوة.

وكان لما طرحه في مجتمعهم من وسائل الإباحية والترف أثره البعيد في اضطراب شخصيتهم، ذلك أن قدرة النفوذ الإستعماري على تدمير الأخلاق والصمود النفسي القائم على الخشونة والإيمان إنما أوقع المسلم أسيراً لعوامل مختلفة من اللذات والشهوات والأهواء كان الإسلام حريصاً على أن ينظمها له لا إن يجنبه إياها - يجعلها في إطار من التقوى والوسطية والبعد عن الزهادة والإنحراف في وقت واحد.

ولقد عرف المسلمون كيف يدركون النصر بالصبر والصمود وكظم النفس من الشهوات والاستمساك بالعزائم دون الرخص وبهذه القوة الذاتية التي حماها الإسلام بتحريم الآثام جميعاً أدركوا النصر على عدوهم والمنعة في أوطانهم.

(٣)

« كشف القرآن للمسلمين عن حقيقة أساسية من حقائق الحياة هي أن الحرب ضرورة إجتماعية ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع » وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها إسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز. الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾.

ولما كانت الحرب ضرورة إجتماعية فقد واجهها الإسلام وهو الدين الواقعي بالرأي الواضح والقانون الصحيح.

وقد أذن الله للمسلمين بالقتال متى ظلموا أو سدت الطريق أمامهم لتبليغ دعوتهم. او لردع المعتدي.

« فما دامت في الدنيا نفوس لها نوازع وأهواء ومطامع، وما دام هناك هذا الناموس الذي يطبق على الأفراد والجماعات على السواء: ناموس تنازع البقاء فلا بد إذن من الاشتباك والحرب وحتى تكون الحرب لردع المعتدي وكف الظالم ونصرة الحق، والانتصاف للمظلوم تكون فضيلة من الفضائل وتتيح الخير والبركة والسمو للناس وحين تكون تجبراً أو فساداً في الأرض واعتداء على الضعفاء تكون رذيلة وتنتج

السوء والشر والفساد في الناس «وبذلك كانت أولى نظرات الإسلام إلى الحرب إنها ضرورة إجتماعية أو شر لا بد منه لما يرجى من ورائه من خير». «إمام جليل».

ويشهد القرآن بأن الإسلام يغلب السلم على الحرب، فإن الآيات التي جاء فيها ذكر الحرب لم تزد على ست آيات أما الآيات التي ذكر فيها السلم ومشتقاته فقد بلغت ١٣٨ آية.

وقد أقام الإسلام مفهوم الحرب على أسس واضحة: فهو:

(أولاً) من أجل رد العدوان والدفاع عن النفس والأهل والوطن والدين ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾.

(ثانياً) من أجل تأمين حرية الدين والاعتقاد للمؤمنين الذين يحاول الكافرون أن يفتنوهم عن دينهم.

(ثالثاً) حماية الدعوة حتى تبلغ للناس جميعاً ويتحدد موقفهم منها تحديداً واضحاً، ذلك إن الإسلام رسالة إجتماعية إصلاحية شاملة تنطوي على أفضل مبادىء الحق والخير والعدل وتوجه إلى الناس جميعاً.

(رابعاً) تأديب ناكثي العهد من المعاهدين أو الفئة الباغية على جماعة المؤمنين التي تتمرد على أمر الله وتنأى عن حكم العدل والإصلاح.

(خامساً) إغاثة المظلومين من المؤمنين أينما كانوا والانتصار لهم من الظالمين.

(سادسا) تحريم الحرب لغير ذلك من الأغراض فكل ما سوى هذه الأغراض الإنسانية الإصلاحية ألحقه من المقاصد المادية أو الشخصية أو النفعية فإن الإسلام لا يجيز الحرب من أجلها.

(سابعاً) إضافة القتال دائماً إلى سبيل الله وتحريم كل قتال لغير هذه الأغراض.

(٤)

عرف المسلمون «الجهاد» وفق مفهوم الإسلام: دفاعا عن حق مجتمع الإسلام في الحياة ودعوة الإسلام في الامتداد.

وذلك بالتضحية بالنفس والتغلب على أهوائها من أجل تجديد بناء الأمة وحماية الحوزة.

وقد أقام الإسلام منطلقه في هذا صريحا واضحاً: من قتل دون عرضه فهو شهيد، ومن قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دينه فهو شهيد.

ويقوم الجهاد على قواعد أربع:

«الأعداد»: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط

الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾.

« الكتمان والمباغتة »

« المرابطة »: المرابطة هي الإقامة في الثغور ﴿يا أيها الذين آمنوا إصبروا وصابروا ورابطوا﴾.

« الثبات » أمام الفئة الباغية ﴿إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً﴾.

« الصمود » أمام الحرب النفسية: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسهم سوء﴾.

وروح الإسلام في الحرب: إن لا يعلن المسلمون الحرب ولا يحصرون عليها فإذا وجبت فإن عليهم أن يخوضوها شجعانا « لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا وأعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ».

وقد أكد الإسلام على المؤمنين به أن يعتصموا بالصبر، والمصابرة (ومعناها التحمل) وملاقاة الصعاب بعزيمة ثابتة، وإن يجتنبوا المعاصي وقد صور أمير المؤمنين عمر بن الخطاب هذا المعنى: « إياكم والمعاصي وأنتم في سبيل الله، فإنها أخطر عليكم من عدوكم، إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا فرب قوم سلط عليهم من هم شر منهم ».

وفي هذا المعنى يقول الاثر: إنما تفضلون عدوكم بطاعة الله

فإن ساويتموهم في المعصية، تفوقوا عليكم بعددهم وعددهم.

ومن هنا دعا الإسلام إلى بناء الرجال الأشداء: وأكد الرسول أن الرمي هو أساس القوة: عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله يقول وهو على المنبر:

« الا أن القوة الرمي. الا أن القوة الرمي. الا أن القوة الرمي » وقد كشفت وقائع الحرب التي اقتحمها المسلمون حقائق بالغة ترجع في الواقع إلى مفهوم الإسلام للجهاد وتشكيله للمسلم المجاهد، وأبرزها: أن المسلمين كانوا في كل معركة انتصروا فيها أقل من عدوهم، عدداً وعتاداً.

٣١٢ في بدر في مواجهة ١٠٠٠ من الأعداء.

في معركة دمشق ٢٤ ألف مسلم في مواجهة ١٨٥ ألف من لروم.

في معركة حنين ١٢ ألفا في مواجهة ٣٠ ألفاً.

ولقد سجل الإسلام قاعدة عامة وقانونا لا ينقض في هذا المجال:

﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين﴾.

وهكذا رسمت النظرية الإسلامية قاعدة الاهتمام بالكيف دون إهمال الكم بينما كانت نظرية غير المسلمين ولا تزال الإهتمام بالعدد والعتاد أما الإسلام فهو يضع في المرتبة الأولى

العناية بالمقاتلين من زاوية إيمانهم ومقدراتهم وكفايتهم وإمكانيتهم في مزاولة مهنة الحرب.

وقد حطم الإسلام نظرية الأكثر عدداً والأكثر عتاداً في عشرات من المعارك.

وأقر الإسلام مفهوم القلب المؤمن صاحب اليد القوية، والعقل القادر على استخدام السلاح.

وفي مختلف معارك أتباع محمد مع الفرس والروم كانوا أقل عدداً وعتاداً وانتصروا على الإمبراطوريتين وأزالوهما رغم تفوقهما في العدد والسلاح.

وقد تمكن المسلمون بإمكانيات محدودة وتقديرات مادية ضئيلة من التغلب على أعداء أشداء ذوي مراس في الحرب، ويستطيع المسلمون في كل عصر ومصر أن يحققوا هذا النصر إذا اعتنقوا نفس إيمان المسلمين الأول.

ويبدو هذا المفهوم واضحاً في كلام خالد: عندما قال له أحد جنوده:

ـ ما أكثر الروم وأقل المسلمين.

قال خالد: بل قل ما أقل الروم وأكثر المسلمين، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالهزيمة.

وقال القائد المسلم للأعداء: لقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما يحبون الحياة» وقد وصف رسول المقوقس المسلمين فقال:

« رأيت قوما الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب اليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة إنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد من العبد ».

وقد فهم المسلمون إنهم يندفعون إلى الجهاد باحدى حسنيين: النصر أو الشهادة، إنتصار يمكن للأمة الحياة واستشهاد يمكن للمسلم الخلود.

وهم يقدمون أنفسهم في سبيل عزة الإسلام، قيل لمالك بن سنان:

نحن بين إحدى الحسنين: إما أن يظفرنا الله أو يرزقنا الشهادة.

قال: والله ما أبالي أيها كان، أن كلا لفيه الخير.

ولقد آمن المسلمون بالمواجهة ولم يرهبوها « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ».

وكان سيدنا علي يكبر كلما صرع خصما فقيل له في ذلك فأجاب:

كنت إذا حملت على الفارس ظننت أني قاتله وظن هو أيضاً إني قاتله فكنت أنا ونفسه عليه.

وفهم المسلمون مدى خطر التثاقل عن الجهاد ارتباطاً أو متاع الحياة ودعا إلى الإستجابة للنفير بنشاط وحماسة مهما كانت المشقة والأعذار.

وقد أكد الرسول ﷺ ظاهرة الغزو الخارجي لعالم الإسلام والإستيطان والإحتلال مما أسماه تداعي الأمم ورد أسبابه إلى الوهن: وهو حب الدنيا وكراهية الموت.

(٥)

عرف المسلمون الأول « إرادة القتال » وفهموا أبعادها فهما صحيحاً في إطار الإيمان بالله لاخارجه، وقد صورها اللواء محمود شيت خطاب فوصفها « بأنها الرغبة الأكيدة في الثبات بميدان القتال من أجل مثل عليا وأهداف سامية. وإيمان لا يتزعزع بهذه المثل والأهداف وثقة بأنها أحب وأعز وأغلى من كل شيء في الحياة، وتحمل أعباء الحرب بذل الأموال والأنفس والاستهانة بالضراء والسراء وصبراً على البأساء وحين البأس حتى يتم تحقيق المثل والأهداف السامية مهما طال الأمر وبعد الشوط وكثر العناء.

مفهوم إرادة القتال في الجهاد الإسلامي: مادة وروح، فيه الدعوة إلى الخير والسلام، وفيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفيه الإعراض عن الاستغلال والإستعباد، أما في

الشرق والغرب فقد فهمت إرادة القتال « مادة فقط »، في الدعوة إلى التسلط والاستعباد وفي إشاعة المنكر والفساد وفي حب الحرب وكراهية السلام وفي الاستغلال والاستعمار »[1].

أما الإسلام قد أقام إرادة القتال على روح الشجاعة والإقدام: وقوامها الخلق الكريم ومنه الطاعة والصبر الجميل. فقد أمر الإسلام بالثبات في ميدان القتال، وأعتبر التولي يوم الزحف من الكبائر. ودعا إلى الجهاد بالأموال والأنفس لأعلاء كلمة الله: ﴿انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾.

ووضع الإسلام هذه الأمانة في كفه ووضع في مقابلها الدنيا كلها وفاصل المسلم عليها ﴿قل إن كان أباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمر من عنده﴾.

وقد أقام الإسلام تعاليمه في القتال على أساس الرحمة: فأكد ضرورة الوفاء بالعهود واحترام المواثيق ومقاتلة الذين يقاتلون وحدهم وحرم الإجهاز على المريض أو تعذيب العدو وطالب بمبادرة العدو بتبليغ دعوة الإسلام « إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى احدى ثلاث فإن أجابوك فاقبل

(١) ارادة القتال في الاسلام: اللواء محمود شيت خطاب.

منهم وكف عنهم: الإسلام أو الجزية أو القتال» كما دعا إلى حسن معاملة الأسرى.

وقد كانت وصايا الحرب صريحة واضحة في تحقيق هذا المنهج الكريم.

«لا تخونوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيراً ولا إمرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة أو بقراً ولا بعيراً إلا لمأكلة».

ونبي الاسلام منهجه في السلم على أساس الاستعداد الدائم واليقظة الكاملة والتأهب في مواجهة العدو وجعل هذا الإعداد والتأهب رهبة للعدو:

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾.

ويكون الاستعداد الدائم للقتال بناء الحصون وحشد الأسلحة في البر والبحر والجو ومصانع الذخيرة ومعاهد تعلم فنون الحرب.

(وقد أصبح رباط الخيل في العصر الحديث: مركبة حربية وطائرة وسيارة مصفحة) كما نص على الانفاق في سبيل الله لإعداد القوى العسكرية.

فإذا كانت الحرب فإنها الصمود والثبات والكتمان والمباغتة وحسن إختيار الرجال وبناء العدد القليل على الإيمان والفداء والبيعة لله، والثبات عند لقاء العدو وطاعة القائد وعدم التنازع والصبر على الشدائد.

وقد ترك تاريخ الرسول ومعارك المسلمين تـراثـا ضخما نافعاً للمسلمين في كـل عصر مـن يكشـف عـوامـل النصر وأسبابه.

(٦)

دعا الإسلام إلى الحشد والأهبة والمرابطة الدائمة وجعلهـا أساساً للسلم ورهبة تحمي مجتمع الإسلام وترهب أعداءه فلا يفكرون في غزوه.

وقطع الإسلام بحرمـان مقـاتلـة مـن هـم على غير ديـن الإسلام، مخالفة في العقيدة، بل أمر معاملتهم بالحسنى ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين﴾ وحدد وجه المقاومة لفئة معينة هي الفئة المعتدية:

﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون﴾.

لشدة حرص الإسلام على السلم دعا إلى الدخول في السلام

العام ودعا المسلمين إذا جنح عدوهم إلى السلم أن يجنحوا إليه.

﴿وإن جنحوا للسلم فأجنح لها وتوكل على الله﴾

وقرر الإسلام القتال في حالة الدفاع عن النفس، أو في سبيل الله إذا سد العدو طريق الإسلام في الإنتشار.

وقد بقي المسلمون بضعة عشر سنة في مواجهة خصومهم قبل أن يسمح لهم بالقتال: وكان النبي يواجه مواقف الاضطهاد والظلم بقوله:

ـ إصبروا لأني لم أؤمر بالقتال.

فلما اتسعت المؤامرة وحاولت القضاء على الدعوة وقائدها: أذن للنبي بالقتال ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا﴾.

ولقد جعل الإسلام النصر مرتبطاً بإقامة حدود الله وتوسيد المجتمع على النظام الاسلامي ومعنى هذا أن النصر، لا يستهدف الاحتلال أو استغلال الثروات أو التسلط فالقتال في الإسلام له غايات محدودة:

١ ـ القتال لتكون كلمة الله هي العليا.

٢ ـ القتال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣ ـ القتال لتحقيق العدالة في الأرض ومعالجة الظلم والبغي.

٤ - القتال في سبيل الله خالصاً من أي غرض دنيوي.

٥ - القتال لرد العدوان ومحاربة الطاغوت.

ومن هنا فقد قرر الإسلام رفض كل قتال للغم أو الذكر أو مطامع الدنيا.



(٨)

تربية صالحة: لبناء الأجيال

وانتصر المسلمون بالتربية الصالحة: وبناء الأجيال وصياغتها على الإيمان والرجولة ثم إعادة صياغتها كلما واجهت الأزمات وفي مختلف الأحداث الضخام ففي مواجهة حملات الصليبيين والتتار والفرنجة أعاد المسلمون تكوين الفرد المسلم على أخلاق الإسلام فاستطاعوا أن يحققوا النصر على نفس المستوى الذي حققه المسلمون الأوائل وقد فهموا التربية فهما إسلاميا متميزا خالصا عن مفاهيم التربية في الأمم والشعوب، فهموها تهذيباً للنفس وترقية للذوق وبناء للقدوة الحسنة والمثل الأعلى من خلال الأسوة الحسنة في رسول الله ﷺ والصحابة الذين كونهم النبي على مفهوم التوحيد الخالص. والتربية في مفهوم الإسلام إسلوب لبناء الإنسان بوصفه فرداً مسلما وبوصفه جزءاً من المجتمع الإسلامي، وإعداده بالقدوة والكلمة والعادة وبالمواقف المختلفة والأحداث.

وتنظر التربية إلى الفرد المسلم كبناء متكامل قوامه الروح

والعقل والجسم وتعنى به وفق فهم شامل أساسه الإيمان بالله والعمل في الأرض من أجل النماء والبناء والإنشاء.

ويقوم منهج التربية الإسلامية على بناء الفرد في البيت بالقدوة، وإقامة علاقة وطيدة بين البيت والمدرسة من خلال الأب والمعلم والرفيق. كما أكد علماء التربية الاسلامية ضرورة تلقي العلم من الأساتذة لا من الكتب وحدها وقد ربطت التربية الإسلامية بين التعاليم والتربية على أساس أن العلم وحده لا يكفي ما لم تصحبه تربية الذوق والعقل والروح وقوام التربية الإسلامية أساساً: هو الأخلاق ولا يقر الإسلام الفصل بين التعليم والتربية أو بين التربية والأخلاق.

وفي مفهوم الإسلام: إن العلم لا بد أن تحميه وتظاهره قيمة أخلاقية واضحة حتى لا ينحرف أو يفسد أو يتجه وجهة ضارة بالمجتمع الإنساني.

وترفض المفاهيم الإسلامية في التربية كل مفاهيم الإباحية والتحلل ورفع التوجيه عن الشباب في مرحلة التربية والتعليم وذلك إيمانا بأن الشباب في هذه المرحلة في حاجة إلى البناء والتكوين والتوجيه الذي لا يتم إلا من خلال الإنتفاع بتجربة المربين والمعلمين الذين يجد الشباب عندهم القدوة ويجد عندهم الخبرة الطويلة.

وليس في توجيه الشباب في مفهوم الإسلام ما يحول دون استقلالهم الذاتي أو دون إتاحة الفرصة لهم لالتماس مناهج

جديدة تتفق مع أجيالهم وأذواقهم فذلك كله يعترف به منهج التربية الإسلامية ويقره ويعمل على إيجاده إن لم يكن موجوداً.

ولقد كان من أكبر المخاطر في تاريخ الإسلام كله التماس المسلمين لمناهج من غير قيمهم الأصيلة المستمدة في القرآن الكريم وإسوة الرسول.

وإن كان من حقهم أن يعرفوا أساليب الأمم مع تقدير كامل لفوارق العصور والبيئات والأديان.

(٢)

ركز منهج التربية الإسلامية على القدوة. فالأطفال يأخذون أكثر مما يأخذون بالتوجيه قال عتبة بن أبي سفيان لمعلم ولده:

« ليكن أول صلاحك لولدي إصلاحك لنفسك فإن عيونهم معقودة عليك فالحسن عندهم ما صنعت والقبيح عندهم ما تركت ».

ورسم الإسلام منهجاً كاملاً للتدين مرناً متطوراً مرتبطاً بالمجتمع والأخلاق مستمداً أصوله من القرآن مستهدفاً فتح النفس الإنسانية بقوتها الكاملة في مجال العمل والحركة، متحررة من كل خوف، ملتمسة الخير والحق، في مراقبة

كاملة لله، وإيثار للناس.

وقد فهم المسلمون الأولون أن التربية جامعة للعقل والجسم تستهدف بناء البدن والروح والعقل، وفي حدود التوازن الذي يعطي النفس منطلقها إلى العمل والكسب ويحفظها في نفس الوقت من السرف والانحلال.

وقد جمعت التربية الإسلامية بين تأديب النفس وتصفيـة الروح وتثقيف العقل وتقوية الجسم دون أن تضحي بأي منهم على حساب الآخر.

والإيمان بالله هو حجر الزاوية في التربية الإسلامية وأبرز عناصر التمييز بين الحلال والحرام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهي تقوم في مجموع قيمها على أساس بناء الرجل المسلم والمرأة المسلمة على أساس الإعتماد على النفس والكرامة وحسن الظن بالناس والجرأة الأدبية والصراحة والصدق والاستقامة في الرأي والعمل.

وقد علم المسلمون الأول أن منهج التربية الإسلامية إنما يستهدف بناء مجتمع سليم متعاطف متوازن ببناء أفراده على الإستقامة والإيمان.

(٣)

من خلال مفهوم التربية الإسلامية صنع المسلمون بطولاتهم وأبطالهم وقد استمد المسلمون مفهومهم للبطولة من مقومات الإسلام نفسه، وقد استهدفت البطولة الإسلامية وجه الله خالصة فالعمل البطولي في الإسلام موجه إلى الله مستهدف تحقيق غاية كبرى هي رفعة الإنسانية وإقامة بناء الأمة الحق الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر ولذلك فإنه محرر دائماً من المطامع والغايات وقد صور القرآن مفهوم العمل البطولي في الإسلام في كلمة حاسمة: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً﴾ فالبطولة في الإسلام بطولة رسالة وهدف وغاية كبرى، بطولة نشر دعوة التوحيد الحق وكلمة الله في الآفاق دون التماس لمطمع في متاع الحياة الدنيا.

والبطولة في الإسلام ليست في القادة فحسب ولكنها في الكثرة الكاثرة كذلك يقول عبدالله بن الزبير: بتنا وباتوا وللمسلمين دوي بالقرآن كدوي النحل وبات المشركون في خمورهم وملاعبهم».

ومن أبرز مزايا البطولة الإسلامية: إخفاء البطولة وتوجيهها إلى الله، وعدم الاعلان بها، وفي تاريخ الإسلام صور كثيرة ونماذج متعددة ومن أبرزها قصة صاحب النقب ذلك الجندي الباسل الذي فتح للمسلمين ثغرة في سور دمشق

بعد حصاره بضعة عشر يوما دون أن يعلن عن اسمه.

ولقد فهم المسلمون المثل الأعلى للبطولة فهماً مختلفاً عن المثل الأعلى في مجتمعات أخرى وهو يقوم على الجمع بين القوة والرحمة بين الحق والعدل وبين الصبر والإيمان فالعمل في الإسلام موجه إلى الله تبارك وتعالى أساساً ومن هنا يختلف المثل الأعلى الإسلامي عنه في بطولات اليونان والجاهلية والغرب، هذه البطولات التي قامت وتقوم على المطامع والإستعلاء والسيطرة والشهرة. والتي لا يتحرج البطل فيها من الحصول على النصر بأي سلاح أو من أي طريق والذي يجعل الغاية تبرر الواسطة.

أما في الإسلام فإن الغاية فيه لا تبرر الواسطة مطلقاً والبطولة والحرب والسياسة جميعاً لا تنفصل عن الإلتزام الخلقي.

ولا قيمة فيه لأي بطولة أو نصر إذا جاءت بوسائل الغدر أو التآمر.

* * *

ولقد كان النموذج الأعلى للبطولة الإنسانية هو الرسول محمد بن عبدالله ﷺ فهو بحياته وخلقه وتطبيقه لمفهوم القرآن في البطولة يرسم للأجيال كلها الصورة المثلى التي يقترب منها أبطال الإسلام على مدى التاريخ.

وإذا كان عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وخالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وأبطال المسلمين جميعاً كانوا يلتمسون هذا النموذج البطولي الفذ لقربه منهم فإن المسلمين على مدى التاريخ. قادة وجنداً إنما يلتمسون هذا النموذج الذي كان خلفه القرآن وكان تطبيقاً كاملاً لمفهوم الإسلام.

ولقد عرف المسلمون في كل عصر إخلاص البطولة لله وإن العمل لا الفرد في البطولة هو موضع التقدير والتكريم، فلا يؤمن المسلمون بما يسمى عبادة البطل أو عبادة الفرد أو رفع الأبطال إلى مرتبة الآلهة أو أنصاف الآلهة.

وقد قصر الإسلام العظمة والعبادة والقداسة لله سبحانه وتعالى وحده، ولم يجعل ذلك لاحد غيره، بل إنه حذر من ذلك بالنسبة للنبي وحذر الرسول نفسه المسلمين من ذلك في مواقف كثيرة منها: «موقفه الحاسم» عندما انكسفت الشمس يوم وفاة ابنه إبراهيم وقد سمع الناس يقولون:

إنما كسفت الشمس لموت إبراهيم فخرج غاضباً، يجرُّ رداءه وقال كلمته الحاسمة:

«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تنكسفان لموت أحد».

ويبدو ذلك واضحاً في قوله: يا فاطمة إعملي ما شئت فلن أغني عنك من الله شيئاً، هذا إلى عديد من المعاني والصور تكشف بوضوح هذا المفهوم الأصيل في الإسلام

كذلك رفض الإسلام مفهوم «الأحجار» في تكريم البطولة وتخليدها فالبطولة في مفهوم الإسلام لا تقدس الفرد ولكنها تخلد العمل..

والاسلام يركز مفهوم البطولة في عمل البطل لا في ذات البطل وحين يصل الأمر بالبطولة إلى مرحلة الإعجاب الذي يقترب من القداسة ينتزع عمر بن الخطاب خالد بن الوليد من ميدان الحرب ويعزله: ويقول:

«خفت أن يفتتن الناس به فرأيت أن يعرف الناس أن الله هو الصانع» وفي هذا يحرر عمر المسلمين من العبودية للفرد.

كما رفض عملية التجسيد فقد قطع عمر الشجرة التي بايع المسلمون الرسول تحتها بيعة الرضوان حين رأى المسلمين يقصدونها.

ولقد آمن المسلمون بأن الأبطال هم المادة التي يتخذها الإسلام لتحقيق مبادئه، والأفراد قانون والأعمال هي الباقية ولذلك فهي التي تكرم وتخلد وتكريمها هو استئناف عملها على أيدي الأجيال المتتابعة أما تجسيدها في حجر أو تمثال فهو لا يتفق مع طابع التوحيد الذي يثبت الفكرة الصالحة ولا يجسد صاحبها.

(٤)

ولقد آمن المسلمون على توالي الأجيال أن النصر إنما يلتمس من مصادر الإسلام نفسه، وإن تربية الأجيال على مفاهيم الإسلام هي الأسلوب الأمثل لتنشئة أجيال صامدة قادرة على مواجهة أخطار الغزو الخارجي والوقوف في وجه العدو.

ولقد أكد المصلحون على مدى العصور «أنه لا ينهض بالمسلمين روح أوربية ولا روح شيء خارج عن الإسلام وما ينهض بهم «روح» القرآن الذي كان مبعث نهضتهم الأولى والذي به حياتهم الأدبية والذي فيه لهم النازع والوازع والمحرك والمسكن والذي بدونه ليس أمامهم إلا أمرين الفناء والانحلال.

«وإن العلوم العصرية لا تفيد المسلمين إذا اقترنت بأصول الإسلام وسارت جنباً إلى جنب مع أوضاعهم وعقائدهم»

قال جوستاف لوبون في كتابه روح السياسة بأن «تهذيب المسلمين بالمعارف العصرية الأوربية خارجا عن دائرة تقاليدهم وعقائدهم يزيدهم انحطاطاً وفساد أخلاق ولن تنفعهم هذه العلوم إلا إذا كانت ضمن دائرة عقيدتهم».

لقد آمن المسلمون بأن العلوم الحديثة لا تنهض بالمسلمين

نهوضاً حقيقياً إلا إذا حصلت ضمن دائرة لغتهم وعقيدتهم وتاريخهم ومشربهم.

ومن هنا حق عليهم أن يترجموا العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والتكنولوجية والطبية جميعاً إلى لغتهم ثم انطلقوا من خلالها إلى بناء قوتهم الذاتية على مقتضى بناء الأجيال المسلمة القوية المحصنة بالإيمان والتقى المفطومة عن الشهوات المندفعة لتحقيق رسالة المرابطة في الثغور في سبيل حماية الحدود مع الاعداد بالقوة لإرهاب العدو ثم إقامة المجتمع الإسلامي على النحو الذي رسمه القرآن الكريم.

(٩)

مفهوم شامل للحياة والمجتمع

آمن المسلمون بالإسلام مفهوما شاملاً ومنهجاً كاملاً للحياة والمجتمع.

فالإسلام منهج في الحياة، يقوم على التكامل بين الجانبين الروحي والمادي في الإنسان والمجتمع. والإسلام حركة إجتماعية كان الدين بمفهوم العبادة جانباً منها والإسلام عبادة ومعاملة وأخلاق: وحسن الخلق قرين العبادة والنظام الإجتماعي جزء من الإسلام، وقد أقام الاسلام نظاماً يصل الإنسان بربه ويصله بالبشر، فأقر نظام الأسرة بالزواج وأعلن حقوق الأسرة ورفع مكانة المرأة وأبطل الرق، فكل رقيق يدخل الإسلام يصبح حراً كما يصبح حراً بالعتق، وأعلن الزكاة للموازنة بين الأغنياء والفقراء وجعلها حقاً للفقراء وجعل الأمر شورى.

ويعترف الإسلام بالنوازع والغرائز على أنها الأمر الواقع بالنسبة للبشر والعواطف فهو لا يحرمها ولا يزهد فيها ولكنه

ينظمها ويهذب مداخلها ومخارجها ويضع لها ضوابط تحول دون تدمير الكيان البشري:

هناك فرق بين حرية السلوك وتنظيم السلوك.

وليست مقومات الخلق والدين قيوداً بقدر ما هي وسائل حماية وبناء.

والإسلام لا يحتقر الأمور الدنيوية، ولا يقرر الجوانب الروحية حددها، وإنما يقيم مثلا أعلى متكاملا، من الروح والمادة بعيداً عن النفعية والرهبانية ويجمع بين الدين والدنيا.

وقد نظم الحرية الفردية وأقام علاقة الفرد بالمجتمع، على أساس العدل والمادة بين القوي والضعيف، ودعا إلى الكرامة والآباء عند الفقر والعذر والفرد جزء من المجتمع والمجتمع هو كل الأفراد.

وقد أمر الإسلام بتعمير الأرض والتنافس في الصنائع والفنون النافعة وقد دعا الإسلام المسلمين إلى استخدام حواسهم الظاهرة في النظر والتأمل كما حرضهم على طلب العلم والمعرفة والنظر في الكون والتأمل في الكائنات والتنقيب عن أسرار الوجود.

* * *

حل الإسلام أكبر مشاكل المجتمعات فأحل الأخوة بديلا

للتمييز العنصري وأحل العدل الاجتماعي بديلا لتفاوت الطبقات.

فأقر الإسلام مفهوم الاخاء الصحيح الذي يقرر أن إيمان المرء لا يكتمل حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

والناس تتكافأ دماؤهم وأموالهم والمسلم للمسلم كالبنيان المرصوص.

أقام الإسلام «الإنسان» سيداً للكائنات تحت حكم الله، فقد دعا الإسلام جميع أبنائه إلى الاندماج في المجتمع والأخذ من منافع الدنيا بنصيب وأعلن أن كل إيقاف الحياة على الزهد والنسك مخالفة صريحة لمفهوم الإسلام لأنه ابتعاد عن الحياة العلمية التي هي العمل الرئيسي لمعرفة إيمان المرء وقدرته على تجنب الشر وعمل الخير.

وللمرأة في الاسلام أن تزاول التجارة والصناعة والزراعة وان تتولى العقود في المعاملات وأن تملك كل ما يملك وأن تنمي أموالها كالرجل تماماً.

والناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي ولا أحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى.

ويعرض الإسلام كفالة أبنائه العجزة والضعاف والمحرومين.

ويـرمـي الإسلام إلى تـداول المال بين النـاس، دون أن تداوله يد طائفة خاصة، وقد قيد حق التصرف في الإنفاق بمنع السرف والتقتير معاً، كما حرم تنمية الثروة بالغش والربا والقمار والاحتكار.

وحفظ الدنيا وتنميتها من أصول الإسلام فليس الإسلام دين عبادة فحسب، والمال مال الله وحده، والإنسان خليفة الله فيه إستخلفه للإنتفاع بهذا المال الذي يوجه في سبيل الله أي في سبيل مصلحة المجتمع.

وليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال أو في إضاعة المال ولكن الزهادة أن تكون لما في يد الله أوثق منك بما في يدك.

وليس الزهد في الإسلام هو الانعزال عن الحياة بل هو إيمان المسلم بالتضحية بنفسه في سبيل المجموع.

لا عداء للدنيا ولا تكالب عليها ولا تعطيل لما كرم الله به الإنسان من قوى الفكر والإرادة والعمل.

والمال تطهره الصدقـة، والزكـاة حـق معلـوم للسـائـل والمحروم.

* * *

ويجعل الاسلام طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

ويفرض على الأمة أن ترتب أقواماً لتعليم الأجيال، والعلم

في الإسلام يزكو بالانفاق وقد أخذ الله الميثاق على الذين يعلمون أن يبينونه للناس ولا يكتمونه وقد ربط الإسلام بين الدين والعلم وكان مصدراً لأرقى مقررات العلم ـ والإسلام هو الذي أنشأ المنهج العلمي التجريبي.

وأقر الاسلام دستور العلم فدعا إلى عدم الإنخداع بالأوهام أو قبول الظن ودعا إلى أعمال العقل وسؤال أهل الذكر.

وفرق الإسلام بين المعارف والعقائد، فالمعارف عامة والعقائد خاصة وأقام الاسلام للمعرفة منهجاً متكاملا جامعاً بين القلب والعقل، وبين التأمل في الكون ومعرفة عبرة التاريخ.

وأطلق حرية البحث ودعا إلى إقامة الدليل وحث على الاجتهاد وإدراك الحقائق حتى قرر أن للمجتهد أجران إن أصاب وأجر إذا أخطأ وحرم التقليد.

وأباح الإسلام لمعتنقيه البحث والنظر وطالب بالتمسك بالدليل وقرر الاسلام أن العقل مناط التكليف ومحك التمييز بين الحق والباطل وطالب كل معتقد بالدليل على صحة معتقده ودعا إلى تحرير العقول من أسر العقائد الباطلة وقد أشار إلى هذا المعنى أحد الباحثين الغربيين فقال:

« إن الإسلام أطلق العقل الإنساني من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد وبين أيدي الكهنة من ذوي الأديان

المختلفة فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة، ثم إنه بتحريمه التماثيل والأصنام والصور في المساجد وكل ما يمثل الله فقد خلص الفكر الإنساني من وثنية القرون الأولى ودعا العالم لأن يرجع إلى نفسه ويبحث عن خالقه».

وقد حث الإسلام حثاً متواصلا على تنمية العقل الإنساني وإبراز الدور الكبير الذي ينبغي على العقل أن يؤديه في إطار الإيمان بالله.

وعلى العقل أن يتخذ «الوحي» هادياً ومرشداً، فإذا لم يفعل فإنه عاجز كل العجز عن الوصول إلى المعرفة الصحيحة لما وراء الطبيعة.

وقد برأ الإسلام من فكرة الجبر وتعطيل العقل كما بريء من تأليه العقل أو القول بما تردده بعض الفلسفات الباطلة من القول بسلطان العقل.

وقد حافظ الإسلام على الفطرة الإنسانية ونهى أشد النهي عن إفسادها بالتعاليم الضارة وحاطها بحوافظ قوية، وقد نبه النفوس أولا إلى ضرر التقليد الأعمى وأمر بطلب الدليل المقنع على كل عقيدة يتقدم بها داع لنحله [1].

وقرر الاسلام أن للوجود الإنساني سنناً لا تتبدل ولا تتحول ولا تزال عاملة على مقتضى نظامها المقرر لها. وإن

(١) عن نص للعلامة محمد فريد وجدي.

للكون والحياة نواميس ثابتة وقرر أن الجماعات كالأفراد لها آجال لا تستطيع أن تتعداها.

وألغى الإسلام التفرقة العنصرية والتعصب العنصري ودعا إلى المساواة بين الشعوب والأجناس أمام الناس وأمام الله.

واعترف الإسلام بناموس الترقي واعتبر الانسان مسوقاً لغايات من المدنية لم ينلها إلى اليوم.

وليس في القدر الإسلامي ما يميت شجاعة المسلم أو تؤدي إلى فتور همته فهذا القدر مرادف لسنة الكون التي تهيمن على جميع الناس وتضع حداً لأعمالنا.

لم يأت الإسلام من العبادات إلا ما يحقق الخير للفرد في روحه وجسده فهو لم يغمط حق الجسد ولم ينكر مقتضيات المادة.

وقد كان الإسلام وسيظل حركة تحرر في مواجهة كل غزو خارجي، وحركة عدل إجتماعي في مواجهة كل ظلم وحركة شورى في مواجهة كل استبداد وحركة اخوة في مواجهة التفرقة العنصرية.

وأقرالإسلام حرية الاختيار ﴿لا إكراه في الدين﴾ وأساس حرية الاختيار في الإسلام تقوم على أساس أن أصل الإنسان الخير وليس الخطيئة على خلاف ما جاءت به بعض الأديان فقد قرر القرآن أن الإنسان خلق طاهراً وخلق تاماً وليس

الإسلام عقيدة أخروية فحسب لا أخلاق مجردة بل هو منطلق الحياة كلها. وقد وضع الإسلام نظامه ومنهجه الإجتماعي في صيغ كلية وأصول عامة ثم أطلق للمجتمعات في كل أدوار التاريخ التصرف في التفاصيل على ضوء تطورات العصر والبيئة.

وأقر الإسلام المسئولية الفردية وأن كل نفس بما كسبت رهينة وهذا هو معقد الأمانة والتكليف الذي به أصبح الانسان خليفة في الأرض. ودعا الإسلام إلى أنصاف النظرة والحكم إلى الأهل والغير جميعاً.

(١٠)

إيمان صحيح: يربط العلم بالعمل

وضع المسلمون هذا المنهج الرباني القرآني موضع التنفيذ في حياتهم وطبقوه على أنفسهم. فصنعوا الأمة الإسلامية وجعلوا منه منطلقهم في الحرب والحضارة والمجتمع وكانوا متمثلين لرسول الله وصحابته، وبذلك نقلوا أنفسهم من مفهوم الإسلام إرتقاءاً وتسامياً إلى مفهوم الإيمان: ربطاً بين العلم والعمل وتطبيقاً للقيم القرآنية في مجال الحياة وبذلك تشكلت «أمة» جديدة.

أمة كان من أبطالها خالد وسعد والمثنى الذين دكوا دولة الأكاسرة، وعقبة بن نافع الذي دفع حوافر فرسه في مياه البحر الأبيض وهو يقول:

والله لو كنت أعلم أن وراء هذا البحر بلاداً لخضته في سبيلك.

وقتيبة بن مسلم الذي وصل إلى الصين وقال: إن أول خيلنا في بلاد الزيتون وآخرها في بلادك. وعمر بن عبدالعزيز الذي قال لواليه:

« ضع الجزية عمن أسلم فإن الله إنما بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً » وأبطال أجنادين واليرموك ودمشق والقادسية والمدائن.

ومن علمائهم عبدالله بن المبارك وسفيان بن عيينه وسفيان الثوري والفضل بن عياض ومن مساجدهم شع نور العلم: في الأزهر والنظامية وجامعة قرطبة.

ومن رجالاتهم الإدريسي والمسعودي والاصطخري والقزويني وياقوت الحموي وأبو الفداء.

ومن تجارهم من بلغوا الصين شرقاً براً وبحراً وانتهوا إلى جزيرة زنجبار وأقاصي شواطيء أفريقيا جنوباً وتوغلوا في روسيا شمالا فلم تصدهم في أسفارهم غرباً إلا أمواج بحر الظلمات ومنهم أعظم الملاحين الذين استخدموا البوصلة، ومنهم من أحلوا الكاغد محل الرق وصنعوا الورق من شرانق الحرير. واستعملوا مناجم الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب، وأتقنوا تسقية الفولاذ واخترعوا البارود وعرفوا نركيب النار اليونانية، واستخرجوا قوة البارود الدافعة واستعملوها في رمي القذائف واعملوا الآلات القاصفة والأسلحة النارية.

ومن مؤرخيهم المسعودي الذي كان أول من وصف طواحين الهواء التي لا ماء فيها في سجستان كما وصف الأدريسي أنابيب المياه التي تزودها بالماء في (توليدو) ومنهم

الزركلي الفلكي الذي قال إن الظهر في بغداد يسبق الظهر في توليدو بثلاث ساعات و ٢٦ دقيقة والذي تمكن من قياس طول البحر الأبيض المتوسط. والمراكشي أو الحسن الذي استطاع أن يحدد أربعة وأربعين مكاناً في العالم.

ومنهم من أقام في مدينة (بالرموا) في إيطاليا ثلاثمائة مدرسة.

ومنهم الشريف الإدريسي الذي صنع لملك نورمانديا كرة سماوية وخريطة للعالم في شكل قرص من الفضة ضمت صور الأقاليم الجغرافية ببلدانها وخلجانها وأنهارها وجبالها.

ومنهم نورالدين وصلاح الدين وخالد وطارق وعتبة بن مسلم وأبو حنيفة والشافعي والبخاري وابن حنبل والغزالي وابن رشد وابن سينا والفارابي والبيروني والخليل بن أحمد والجاحظ وأبو حيان وأبو تمام والبحتري والمعري.

وهم الذين كانت قصورهم حديث الدنيا: الزهراء والحمراء وسر من رأى ومسجد قرطبة وقصور الناس في الأندلس والعزيز بالله في القاهرة وبني بويه في الرصافة وبني حمدان في حلب وبني عباد في أشبيلية ومعاوية في دمشق والمأمون في بغداد ومن أعظم ما يذكر صورة الاحتفال الذي أقامه الخليفة المقتدر في قصره لاستقبال رسل الإمبراطور قسطنطين ملك الروم فقد مشى في موكب الإستقبال يومئذ مائة وستون ألف فارس وراجل وسبعمائة حاجب ونحو مائة

أسد، وللمرأة في هذا المجتمع المسلم صفحات من الأمجاد لا تنسى.

ولو أردنا أن نأخذ صورة واحدة كقرطبة في الأندلس، كان سكانها نحو ألف ألف بينما لم تكن مدينة في أوربا يأوي إليها أكثر من ثلاثين ألفاً أو خمسين ألفاً على أكثر تقدير، وكان كل إنسان يستطيع أن يسافر في الليل عشرة أميال على ضوء مصابيح الشوارع وبين صفين لا ينقطعان من المباني.

وكان في قرطبة وحدها مائة وسبعون جارية تعمل في نقل المؤلفات لطلاب الكتب النادرة، وكان في قصر الخليفة أربعمائة ألف كتاب.

وكان سادات أوربا يفاخرون بما يقتنونه من منسوجات قرطبة أو مصوغاتها المعدنية أو آنية الفخار التي لا يعرف لها نظير في بلد آخر.

قال صاحب نفح الطيب أن مسلمي قرطبة كانوا يتفاخرون بثلاث:

بأصالة البيت والجندية والعلم. وهي من أكثر مدن الأندلس كتباً وغناء بخزائن الكتب لكثرة علمائها وكان للحكم الثاني في قرطبة مكتبة بها ٦٠٠ ألف كتاب و ٤٤ فهرساً تردها الكتب من بغداد ودمشق وخراسان والآستانة وبها ثمانين مدرسة يرد لها الطلاب من جميع أنحاء العالم، درس بها البابا سلفستر الثاني قبل أن يتولى منصب البابوية وتخرج منها كثير من أعلام أوربا.

وتقع قرطبة على الشاطيء الغربي من نهر الوادي الكبير بها ستمائة مسجد وخمسين مستشفياً وتسعمائة حمام سوقـي وتسعـة عشر برجاً، وليس أدل على عظمة قرطبة من شارعها الأكبر بطول عشرة أميال يضاء ليلا للمارة حيث كانت المدن مظلمة ليلا إلى تسعمائة عام وكانت قرطبة مرصوفة بالأحجار حين كانت باريس مبركاً للأوحال والمياه التي تغوص فيها الأرجل في فصل الشتاء.

ولمسجد قرطبة تسعة عشر رواقاً وتسعة عشر بابا يتسع بيت الصلاة والبهو لما يقرب من أربعين ألفاً من المصلين ويمتد من بيت الصلاة أكثر من ستمائة عقد. وله مأذنة ضخمة عدت من عجائب الدنيا له تسعة عشر باباً بـه عقود على شكل حذاء الفرس ونقشت عليها في الحجر ببراعة فائقة وزخارف مكونة من أزهار وأشكال هندسية.

والمسجد يحتوي على ١٢٩٠ عموداً وأحد عشر ديـوانـاً وواحد وعشرين دهليزاً وبه ٢٨٦ ثريا يتدلى منها ٧٤٢٥ قنديلا من الزيت عدا الشمعدانات الكبيرة الضخمة المصنوعة من الفضة الخالصة وهي تستمد زينتها من خزانات مصنوعة من نواقيس مقلوبة ومعلقة هي الأخرى في السقف المشيد المؤلف من ٣٨ ألف قطعـة مـن العـاج والأخشـاب الثمينـة كالأبنوس والأترج وعود النـد والصنـدل الأحمر والأصفـر مثبتة كلها بمسامير من الذهب والفضة مطعمة بالجواهر.

ويصرف عليها سنوياً ٢٤ ألف رطل من الزيت و ١٢٠ رطلا من العنبر والعود.

قال سيديو: كانت المدينة تصبح مضيئة وحاراتها مطيبة بما تبقى فيها من الزهور مع استعمال الألحان المطربة في المتنزهات العامة.

فإذا ذهبنا نستعرض حديث الجامعات والمعاهد والمدارس وجدنا نموذجاً عالياً من رعاية العلم وإضاءة شعلة الثقافة.

فهذه النظامية في بغداد أوقف عليها أكثر من سبعين ألف مثقال سنوياً.

وفي دمشق كانت هناك الجقمقية مدرسة صلاح الدين والمدرسة العادلية ومكتبات الظاهرية والمستنصرية وكان بها الكتب ألوفاً، هذا سوى ما أحرق في الأندلس أو أغرق في دجلة.

وقد قامت مدرسة سالرنو الطبية في جنوب إيطاليا على تراث الثقافة العربية التي سادت صقلية وجنوب إيطاليا زهاء قرنين.

وفي القاهرة: الأزهر ودار الحكمة ومدرسة السلطان حسن التي قال المؤرخ الظاهري أنها لا نظير لها في الدنيا وبنى عبدالرحمن الثالث في عاصمة الأندلس سبعاً وعشرين مدرسة مجانية وظلت النظامية في بغداد والزيتونة في المغرب والأزهر

في القاهرة مع جامعة قرطبة تمد العالم بالضياء.

قال دوزي ان كل فرد من أفراد الأندلس كان يحسن الكتابة والقراءة وفي جامعة قرطبة كانوا يدرسون العلم والرياضيات والكيمياء والطب والعلوم الشرعية والفلسفة والفلك وبلغ عدد من أمها الآلاف.

وفي مصر كانت خزائن الكتب في عهد الفاطميين أربعين قسماً كل قسم يشتمل على ثمانية عشر ألف كتاب وبلغ عدد الكتب بالخزانة نحواً من مليون وستمائة ألف.

ودخل ورق الكتابة إلى بلادنا من الصين عن طريق سمرقند، ثم لم تلبث أن شهدت أول معمل للورق سنة ٣٠٠ هجرية، وفي مراكش سنة ٥٠٠ هجرية وذلك قبل أن يصل إلى أوربا بثلاثة قرون فلما وصل إليها كانت اسبانيا الإسلامية هي التي حملته إليها مع علوم المسلمين وفنونهم.

وأقام المسلمون المراصد في مختلف الأنحاء: جندسابور ودمشق وبغداد وقد جهزت بآلات الرصد ومقاييس الإرتفاع والاسطرلاب والساعة الشمسية. وقد وضعوا الازياج المختلفة وأول من أوجدوا عملياً طول الدرجة من خط نصف النهار وقالوا باستدارة الأرض ودورانها على محورها.

وأقام المهندسون المسلمون على نهر الوادي الكبير جسراً من الحجارة ذا سبعة عشر عقداً عرض كل واحد منها خمسون شبراً.

وكانوا أول من استحدث حدائق اليونان وللمسلمين فضلهم في تحسين نسل الخيل.

وفي ميدان الدبلوماسية أرسل المسلمون أول سفارة لبلاد الروس وبعثة الرشيد إلى شارلمان مشهورة، وقد حمل رسل الرشيد هدايا ضخمة منها خيمة عربية وساعة مائية وأثواب حريرية وقرده وفيل ومسك وأعواد من الهند وشطرنج ومفاتيح قبر المسيح.

وكان في بغداد ٨٦٠ طبيباً مرخصاً وقد كشف الرازي وابن سينا كثيراً من الأمراض والأدوية.

وكان ابن الهيثم في القرن السادس الهجري أول من اكتشف حقيقة انكسار أشعة الضوء. وعلل علماء المسلمين ملوحة البحر وعذوبة المطر واحتراق الحطب واحتراق الزيت في المصباح وصعود الهواء وانحدار الماء.

وأطباء المسلمين هم أول من وضع أساس الكيميا ومارسوا أعمال التعصير والترشيح والتصعيد والتبلير (البلورة) والتذويب والألغام والتطليس وهم الذين استحضروا الكحول والبورق والزرنيخ والبوتاس والأثمدة وزيت الزاج (حامض النتريتيك) والزاج الأخضر، وماء الفضة (حامض النتريك) وحجر جهنم (نترات الفضة) وملح البارود (نترات البوتاس) والسلياني والراسب الأحمر (أكسيد الزئبق) وروح النشادر وملح النشادر وملح الطرطير وماء الذهب والبارود.

وهم أول من فتت الحصى في المثانة وسدوا الشرايين النازفة وكتبوا في الجزام والحصبة والجدري وعدوى الطاعون واستعملوا المرقد (المخدر) وكشفوا النقاب عن الدورة الدموية ودودة الانكلستوما.

ولقد ظلت القلويات كلها معروفة بإسمها العربي في جامعات أوروبا حتى اليوم.

وكان الأطباء المسلمون يصنعون خيوط الجراح من أمعاء القطط حتى إذا خيطت به الجراح التأمت وهضم الخيط دون حاجة إلى نزعه.

وعرف المسلمون خاصة الجذب في المغناطيس وخاصة إتجاهه وعرف موسى بن شاكر مائة تركيب ميكانيكي وعللوا حدود الماء في العيون الفوارات وتجمع الماء في الآبار والقنوات واستعملوا السيفون وسموه (السمارة) وعرفوا كثافة الذهب والرصاص.

وبحثوا في الصوت وحصوله وعللوا حدوث الدوي في الأوتار واهتزازها وعرفوا ما بين طول الوتر وغلظه وتأثره من علاقة.

وصنع المسلمون البارود وعملوا إبرة السفينة.

واقتبسوا الأرقام الهندية وشذبوها وأوجدوا طريقة مبتكرة وهي الإحصاء العشري باستعمال الصفر.

وألـف الخوارزمـي أول كتـاب في الجبر واستعمـل علماء المسلمين الرموز في الرياضة فسبقوا الأوربيين إلى ذلك ومهدوا للكشف عن اللوغارتمات وعن التكامل والتفاضل.

وفي مقررات ابن البيطار أسماء ألف وأربعمائة عقار منها أربعمائة عقار لم يعرفها اليونان وقد حدد العرب منافعها ومضارها.

وقد نقل الغربيون إلى لغاتهم أكثر من خمسين إسما عربياً أو مصرياً كما نقلوا أكثر من ثلاثمائة كتاب في الطب.

كما نقل القطن إلى الأنـدلس وصقليـة. ونقلـوا القمـح الأسمر إلى فرنسا وحملوا فسائل النخيل إلى شاطىء الرفييرا ومن أثارهم في صناعة استخراج القطران الذي يطلى به قاع السفن ويحميها من العطب وقد أشار فولتير وغيره من الكتاب والمؤرخين أن أول ساعة عرفت في أوربـا هـي السـاعـة التي أهداها هارون الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا وكانت بدعا في ذلك العصر حتى أنها أورثت رجال الديوان حيرة وذهولا. فقد كان لها اثني عشر بابا وبعدد الساعات فكلما مضت ساعة فتح باب وخرجت منه كرات من نحاس صغيرة تقع على جرس فيطن بعدد الساعات وتبقى الأبواب مفتوحة وحينئذ تخرج صور اثني عشر فارسا على خيل تدور في صفحة الساعة وهناك الساعة المائية التي وصفها ابن جبير وكانت في الجامع الأموي الكبير.

وكان للمسلمين دورهم في البحر وهو دور خطير فقد أنشأوا السفن وعرفوا سبيل تسييرها بالليل والنهار وساقوا سفنهم في المحيطين الهندي والهادي، وعرفوا أدوات الغزو البحري وصنعوا الخرائط والمصورات ودرسوا علوم الجو وهبوب الرياح واستعملوا الابرة المغناطيسية والمنائر الهادية للسفن في الليل.

وصنعوا السفينة والخلية والزورق والقارب كما صنعوا الطراد والحراقة والسفن وهم أول من اخترع البوصلة البحرية التي تحدد الإتجاهات، كما صنعوا الدبابة والكباس والغرارة ومكامن البارود.

وصنع المسلمون الأساطيل الحربية وكانوا يطلقون عنها (الشونة) حين تقام فيها الأبراج والقلاع لحمل المنجنيقات التي يرمى بها النفط المشتعل على الأعداء ويطلق عنها اسم (الحراقات) وكذلك (الطرادات) وهي سفن صغيرة سريعة الجري واكتشفوا معدات الحرب كالزرد والخوذ والدرق (وهي أتراس من جلد ليس فيها خشب) واستعملوا الرماح والكلاليب والسلاسل التي في رؤوسها رمانات من حديد وقوارير النفط يرمون بها الأعداء وهي مشتعلة كما استعملوا المسحوق الناعم الذي هو مزيج من الكلس والزرنيخ يقذفون به العدو في مراكبه فيعمي غبارها المحاربين.

وأجاد المسلمون تركيب النار اليونانية فاستعملوها في

حملاتهم البحرية على شواطىء إيطاليا وبعض جزائر البحر الأبيض كما استعملوا الآلات التي تقذف الحجارة والمواد الملتهبة يصحبها دوي كالرعد.

* * *

ولقد كان المسلمون في كل هذه المواقف يصدرون عن إيمان بالله وثقة به واستبسال يراد به الاستشهاد من أجل الكلمة والموت في سبيل الحق وليس لمطمع الدنيا وغاياتها وحدها.

(١١)

بطولة في كل المواقف

فهم المسلمون الأول الإسلام فهما صحيحاً وطبقوه تطبيقاً دقيقاً، وكان بناء الرسول لصحابته وأتباعه على التوحيد والجهاد والإستشهاد عاملا هاماً في بناء الأجيال المتتابعة على نفس الهدف والقصد: هدف حمل لواء رسالة الإسلام وإذاعته في البشرية وإبلاغه إلى كل حي وإشادة أمة التوحيد.

ولقد كان أثر الإسلام في النفس الإنسانية باهراً، فقد حول العرب المسلمين عن الوثنية والغدر والظلم ودفعها إلى الحق والخير وصاغها على الإيمان وشكلها على نحو فريد يكاد يكون في نظر البعض اليوم كأني هو الخيال أو الوهم أو المستحيل ولكن الحقيقة هي غير ذلك، هي أن المسلمين قادرون على أن يكونوا نماذج في العمل الجاد والتبريز في مختلف مجالات العلم والحضارة من خلال عقيدتهم التي تمنحهم التقوى والخلق ونبالة القصد.

فالإسلام في حقيقته هو الفطرة وهو الذي يفتح أمام

النفس الإنسانية طريقها إلى المروءة والخير والحق، وتحررها من الشح والجبن والبخل والظلم وهو الذي أطلقها على سجيتها خالصة من كل قيد مندفعة إلى مرضاة الله وحده.

وقد فهم المسلمون أن هذه الصياغة الربانية للنفس المسلمة هي مصدر هذه البطولة الفذة التي تنظم كل المواقف والميادين في الحرب والسلم وفي الجد والفكاهة وبين الرجل والمرأة.

لقد أخذ المسلمون مقاصد الإسلام: عقيدة سليمة، ومفهوم شامل للحياة والمجتمع وشريعة عادلة وأخلاق إيجابية وجهاد في سبيل الله وعبادة صحيحة وتربية صالحة فجعلوا منها أسلوباً للحياة وتطبيقاً وعملا وتطابقا بين المثال والواقع فكتبوا صفحة باهرة لا تزال حية على التاريخ.

وقد صور هذا المعنى الفيلسوف المسلم محمد إقبال في سبيل الإجابة على مثل هذا السؤال (لماذا انتصر المسلمون) فقال: لكي يجب على أمم الشرق أن تتبين أن الحياة لا تستطيع أن تبدل ما حولها حتى يكون تبدل في أعماقها وأن عالما جديداً لا تستطيع أن تبدل ما حولها حتى يوجد في ضمائر الناس قبلا. هذا قانون اليقظة الثابت الذي بينه القرآن في كلمات يسيرة بليغة حين قال:

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ إنه قانون يجمع جانبي الحياة كليهما الفردي والجماعي وإنه لجدير بإكبار كل مسلم في العالم ولا سيما في الشرق، يقصد إلى أن

يرفع أنظار الأفراد والجماعات فوق الحدود الجغرافية فيولد أو يجدد فيها سيرة إنسانية صحيحة.

«والدين وحده هو الذي يرد إليه الإيمان والثقة اللذان ييسران له اكتساب شخصيته في هذه الدنيا والاحتفاظ بها في الآخرة، ولا بد للإنسان من الإرتقاء إلى تصور جديد لماضيه ومستقبله ليستطيع التغلب على المجتمع المتنافر المتصادم ويقهر هذه المدنية التي فقدت وحدتها الروحية بالتصادم الباطني بين الدين والمطامع السياسية.

والإسلام دين مفتوح ليس لرسالته الإنسانية حدود زمانية أو مكانية وإن به قوة كامنة تستطيع أن تحرر النفوس من قيود الأجناس والألوان والعصبيات. إن على رماد الثقافة الغربية المتحرقة يمكن أن تـولـد ثقـافـة أفضـل وأبقـى متى استمسكنا بعرى القرآن: رسالة إقرار الحرية ودعم العدالة وتوطيد المحبة بين البشر.

«ليست غاية الإسلام محصورة في الواردات الذاتية التي تجعل المرء بمعزل عما حوله من الناس، بل بناء التربية التي تجعل الفرد صالحا لأن يكون منه ومن غيره مجتمع صالح له انظمته الأصلية».

(١)

ونماذج البطولة الإسلامية التي اتخذت من مقاصد الإسلام تطبيقاً وعملاً تكشف بوضوح أبلغ إجابة عن السؤال: بماذا انتصر المسلمون؟.

إن عبدالله بن خدافة الذي كان على رأس جيش المسلمين إلى الروم حين أسر، أخذوه إلى ملك الروم فقالوا: إن هذا من أصحاب محمد:

قال له الملك: هل لك أن تترك دينك وأعطيك نصف ملكي.

قال: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ملك العرب ما رجعت عن دين محمد طرفة عين.

قال: إذن أقتلك، قال أنت وذاك فأمر به فصلب وقال للرماة: إرموه قريباً من بدنه وهو يعرض عليه ويأبى فأنزله ودعا بقدر فيها ماء حتى احترقت ودعا أسيرين من المسلمين فأمر بأحدهما فألقي فيها وهو يعرض عليه أن يصبأ وهو يأبى، ثم بكى فظن الملك أنه جزع قال: ردوه. ما أبكاك؟.

قال: هي نفس واحدة تلقى الساعة فتذهب فكنت اشتهي أن يكون بعدد شعري أنفس تلقى في النار في الله.

وفي تاريخ المسلمين عشرات من مثل هذا الموقف وهو يعطي مفهوم الصمود.

وهناك صور من الإيمان الحق حين يغير القلوب والعقول ويحولها يتمثل في الخنساء التي كانت تبكي قبل الاسلام أخاها صخراً وتستصرخ عليه الدنيا وتقول أن صخراً لتأتم الهداة به وإنه علم في رأسه نار فلما أسلمت أسلمت أولادها الأربعة إلى الاستشهاد في موقعة (نهاوند) وخرجت وهي كفيفة تسأل العائدين من المعركة عنهم فلما علمت باستشهادهم قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته.

وحيث يجعل الإسلام لأعرابي أن يدخل على عبدالملك بن مروان وغيره ويقول له:

لا تعدن عدة لا تثق بنفسك في نجاحها ولا يعزنك المرتقى وإن كان سهلاً إذا كان المنحدر وعراً وإن لكل شيء نهاية فاخشى العواقب وإن الأمور تأتي بغتة فكن على حذر فيبكي عبدالملك ويقول له: أطلب ما تريد.

فيقول الرجل: يا أمير المؤمنين: ما جئناك لنطلب مالا ولا جاها، وإنما جئنا لنطلب منك عدلا فإن أعطيتنا إياه كفيتنا مؤنة ما سواه.

ويروي تاريخ الإسلام عشرات المواقف مع المنصور والرشيد وغيرهما من أمراء المسلمين يقبلون النصح ويجدون رجالا فيهم رغبة الى قول كلمة الحق دون أن يخافوا في الله لومة لائم.

يقول عمرو بن عبيد للمنصور: يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل يقفك ويسائلك عن مثقال ذرة من الخير والشر وإن الأمة خصماؤك يوم القيامة وإن الله عز وجل لا يرضى منك إلا بما ترضاه لنفسك.

وفي مقابل هذه الصورة من السماحة تجد هذه الصورة:

إن جبلة بن الأيهم وكان آخر ملوك بني غسان أسلم وخرج إلى مكة فلما كان من بعض طوافه داس رجل من فزاره على طرف ردائه فحل إزاره فلطمه جبلة فهشم أنفه فاستعدى الرجل عليه عمر فدعى به وسأله في ذلك قال:

إنه حل إزاري ولولا حرمة الكعبة لضربت عنقه بالسيف.

قال عمر: قد قررت إما أن ترضي الرجل وإما أقيد له منك.

قال جبلة: تصنع ماذا قال: آمر بهشم أنفك.

قال كيف ذلك وهو سوقة وأنا ملك.

قال عمر: إن الإسلام قد سوى بينكما فلست تفضله إلا بالتقى والعافية.

قال جبلة: قد ظننت أنى أكون في الإسلام أعزمني في الجاهلية.

قال عمر: دع عنك هذا فانك إن لم ترض الرجل أقدته منك.

قال إذن أرجع إلى ديني قال: إذن أضرب عنقك.

فاستأذن في إرجاء الأمر إلى غد وهرب ليلاً.

وهذا مفهوم الإسلام في التسوية بين الناس يبدو في صورة واقعية وتذهب البطولة إلى مداها في عشرات الصور:

قدم عمر الخطاب إلى الشام على حمار فتلقاه معاوية في موكب نبيل فاعرض عنه عمر فجعل يمشي إلى جنبه راجلا فقال له عبدالرحمن بن عوف:

أتعبت الرجل، فأقبل عليه وقال: يا معاوية أنت صاحب الموكب مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك! قال: نعم يا أمير المؤمنين.

قال ولم ذلك: قال إننا في بلاد لا تمنع من الجواسيس ولا بد لهم ما يروعهم من هيبة السلطان فإن أمرتني بذلك أقمت عليه وإن نهيتني عنه انتهيت.

قال: إن كان الذي قلت حقاً فإنه رأي أريب وإن كان باطلا فإنها خدعة أديب، لا آمرك ولا أنهاك.

* * *

يقف عبدالرحمن الناصر في مدينة سموره بعد أن استولى

عليها وقد امتطى صهوة جواده متجولا في ميدان القتال باحثا عن جريح يواسيه أو تائه يعيده إلى أهله. فإذا بنحيب طفل يطرق أذنيه وهو مار تحت أسوار المدينة يبكي فانصت ثم ترجل وقصد إلى مبعث الصوت وإذا به أمام وليد ما يزال في لفائفه مطروح بين الأعشاب في أخدود ضيق تحت جدار متهدم فيلتقطه ويحتضنه ويضمه تحت ردائه ويواصل جولاته في السهول والهضاب.

فلما استوى على المنصة، قطع السكون صيحة أم قد حلت شعرها ومزقت ثوبها تسأل عنه فلما لقيته قالت:

- أعد إلي ولدي فرفع رداءه عن الطفل الذي حمله معه.

ولما وفد على عمر بن عبدالعزيز بريد من بعض الأفاق استأذن عليه ليلا فأذن له ثم دعا بشمعة غليظة فأوقدت وجعل يسأله عن أهل بلده حتى إذا فرغ عمر من مسألته قال له الرجل:

يا أمير المؤمنين كيف حالك في نفسك وبدنك وكيف عيالك.

فنفخ عمر الشمعة فاطفأها وقال: يا غلام علي بالسراج فلما جيء به قال: سل عما أحببت، يا عبدالله إن الشمعة التي رأيتني أطفأتها هي مال الله ومال المسلمين فكانت الشمعة بين يدي فيما يصلحهم وهي لهم فلما صرت لشأني وأمر عيالي ونفسي أطفأت نار المسلمين.

* * *

وقال عمر بن الخطاب ذات ليلة لتابعه: من أين هذا اللبن؟ قال: إن الناقة أنفلت عليها ولدها فشرب لبنها فحلبت لك ناقة من مال لله قال عمر:

- ويحك سقيتني ناراً، أدع لي عليا.

فلما جاء علي أفتى أمير المؤمنين فأحل له ما شرب.

وكان الوالي زياد يقول لحاجبه عجلان: إني وليتك هذا الباب وعزلتك عن ثلاث: المنادي للصلاة، وطارق بليل وعن رسول صاحب الثغرة.

أما المسلمون فكانوا مثلا عالياً في الحرب شأنهم في مختلف أمورهم فقد سأل المقوقس عن المسلمين عند فتح مصر فقال له أحد رجاله:

رأيت قوماً الموت أحب إليهم من الحياة والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة. جلوسهم على التراب وأميرهم كواحد منهم ما يعرف كبيرهم من صغيرهم ولا السيد من العبد وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم.

وكان أحدهم إذا بعث به القائد يقول ما قاله عمرو بن العاص لأبي بكر الصديق: إني سهم من سهوم الإسلام وأنت بعد الله الرامي بها والجامع لها فانظر أشدها وأخشاها

وأفضلها فارم بها شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي.

وكان أحدهم إذا حارب أحب أن يعرف الله عمله وأن لا يعرفه الناس.

فقد حاصر مسلمة بن عبدالله حصناً في معركة فتح دمشق فندب الناس إلى (نقب) منه فما تقدم إليه أحد، كل من يتقدم يواجهه سيل من النبال فيرتد، وفجأة تقدم رجل نحيل مندفعاً على فرسه لا يبالي النبال حتى دخل النقب وفتح الباب للمسلمين فلما انتهت الحرب نادى مسلمة يسأل عن صاحب النقب فلم يصل إلى شيء ثم هدد وتوعد، وفجأة تقدم إلى خيمة الأمير من قال له:

أيها الأمير: لو عاهدتني على ألا تسألني عن اسمي قلت لك عن صاحب النقب. قال مسلمة: أعاهدك: قال: أنا هو.

ثم قام فخرج من خيمة الأمير وذاب في غمار الناس.

فكان مسلمة لا يصلي بعدها صلاة إلا قال في سجوده: اللهم اجعلني مع صاحب النقب.

وكان سعد بن ابي وقاص قد حبس (أبو محجن الثقفي) الفارس البطل يوم (القادسية) لشربه الخمر، فلما رأى أبو محجن ميمنة المسلمين تضعف، أطلق نفسه من عقاله وركب (البلقاء) فرس سعد واندفع يزلزل كالصواعق وينتصر، ونظر سعد (وكان مريضاً مضطجعاً يرقب المعركة من مكان عال:)

فعجب وقال: الضرب ضرب أبي محجن والضبر ضبر البلقاء ولولا أنه في محبسه لظننت أنه هو فلما انتهت المعركة عاد أبو محجن فوضع يديه في القيد فأرسل إليه سعد. وقال له: لقد نصرت الله اليوم نصراً مؤزراً. وأقسم أني لن أضربك الحد أبداً. قال أبو محجن: وأنا لن أشربها أبداً فقد كنت أشربها أنفة حتى لا تقول العرب أني أخاف الحد وأنا اليوم أتركها رغبة في أن يقولوا: خاف الله.

ولما وصل قتيبة بن مسلم إلى حدود الصين على رأس جيش كثيف وأرسل إلى ملكها وفداً فأعادهم الملك ساخراً وقال لهم: قولوا لصاحبكم ينصرف فاني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه وإلا بعثت عليكم من يهلككم.

قال هبيرة: كيف يكون قليل الأصحاب وأول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا وغزاك، أما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه.

وعندما ظهر طاعون عمواس بين المسلمين في الشام أرسل عمر إلى قائد المسلمين ابي عبيدة يحتال عليه ليرده إلى المدينة فقال أبو عبيدة: قد عرفت حاجته يرحم الله عمر أنه يريد أن يستبقي ما ليس بباق. وكتب إليه يقول:

لقد عرفت حاجتك التي عرضت لك فخلي عن عزمتك يا أمير المؤمنين فإني في جندي ولا ارغب بنفسي.

ولما اعتقل المشركون (خباب بن الأرت) قالوا له: اتحب أن محمداً مكانك وأنت جالس في بيتك. قال: والله ما أحب أن تشوك محمد شوكة وهو في مكانه.

فلما هدد بالقتل قال: والله إن قتلي في الله لقليل فجعلوا وجهه من حيث جاء قال: ما صرفكم وجهي عن القبلة ودار بوجهه وقال: اللهم اني لا أرى إلا وجه عدو اللهم ليس ها هنا أحد يبلغ رسولك عني السلام فبلغه أنت عني السلام.

وعندما أراد خالد بن الوليد أن يقصد إلى الشام في جيشه لمواجهة الروم اختار الطريق الأشق والتمس رافع بن عميرة الطائي دليلا له فلما جاءه قال له: إنك يا خالد لن تطيق ذلك بالخيل والانفال والله إن الراكب المنفرد يخشى فيها على نفسه. إنها خمس ليال لا يصاب فيها ماء.

قال خالد: لا بد من ذلك فمر بأمرك. قال: استكثروا إذن من الماء فمن استطاع ان يصر أذن ناقته على ماء فليفعل، فإنها المهالك إلا ما دفع الله.

وطلب إلى خالد أن يجيئوه بإبل سمان فلما جاءوه بها عمد إليها فظمأها حتى إذا بلغ بها العطش مبلغه أوردها الماء عللا بعد نهل، فلما امتلأت صر آذنها وشد مشافيرها حتى لا تجتر.

وانطلق خالد بن الوليد بالجيش يتقدمه رافع خلال خمسة أيام يسيرون في وحشة الصحراء، وينزلون كل يوم، فيأكل الرجال ويشربون مما معهم من الماء فيها، ثم يشقون بطون عدد

من الإبل التي اتخذوها خزانات ويخرجون الماء فيها ويسقونه الخيل حتى بلغوا آمنين.

وعندما وصل سعد بن أبي وقاص إلى شاطىء دجلة رأى وأصحابه مدينة المدائن على مدى البصر، في عظمتها وقصر كسرى في بهائه، وانتهى به الأمر إلى أن يعبر مع رجاله على خيولهم، وتقدم عاصم بن عمر ومعه ستمائة من أهل النجدة فساروا حتى بلغوا شاطىء دجلة، يريدون أن يعبروا أولا ليحموا الشاطىء من الجانب الآخر، فلما وجد بعض رجاله يترددون تلا قوله تعالى:

﴿وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله كتاباً مؤجلا﴾ ثم رفع رأسه فاقتحم النهر واقتحمه زملاؤه.

فلما رأى القعقاع بن عمرو الكتيبة الأولى تتقدم في سبحها ونظر فإذا الأعداء في الجانب الآخر يتأهبون لردها، أمر سائر أصحابه الستمائة، فدفعوا خيولهم إلى النهر فدخلوه كما دخله عاصم وأصحابه وتولى العدو العجب لهذا الصنيع فلما رأوا عاصماً وأصحابه يتوسطون النهر ارسلوا فرسانهم ليمنعوهم من الخروج وليقاتلوهم في الماء، ورأى عاصم ذلك فقال لأصحابه «الرماح الرماح»: اشرعوها وتوخوا العيون.

وخرجت كتيبة الأهوال سالمة.

وكان المسلمون يتحدثون في براعة وذوق رفيع يكشف عن نفوس عالية الهمة:

يقول عمر: لو اخترت تجارة ما اخترت سوى تجارة العطر فإن فاتني ربحه لم يفتني ريحه.

وسئل العباس بن عبدالمطلب: أنت أكبر أم رسول الله.

قال هو أكبر مني وأنا أسن منه.

ولما انتصر المسلمون في معركة نهاوند خرج عمر بن الخطاب يسأل القادمين فلقي السائب بن الأقرع فلما سأل عمر عما وراءه: قال البشرى والفتح. فجعل عمر يسأل عمن قتل من المسلمين فأخذ السائب يذكر له أعيان الناس وأشرافهم ثم قال:

- وآخرون من أفناء الناس لا يعرفهم أمير المؤمنين.

قال عمر: وما ضرهم الا يعرفهم عمر ولكن الله يعرفهم وقد أكرمهم بالشهادة.

(٣)

وكان للعلماء مواقف تشهد بالبطولة.

فقد قيل أن الشافعي كان يجلس للعلم في حلقته إذا صلى الصبح فيجيئه أهل القرآن فيسألونه فإذا طلعت الشمس قاموا، وجاء أهل الحديث يسألونه، فإذا ارتفعت الشمس قاموا، ثم تستوي الحلقة للمناظرة والمذاكرة. فإذا ارتفع النهار

تفرقوا، ثم جاء أهل اللغة والعروض والشعر والنحو حتى يأتي المساء والشافعي جالس في حلقته.

وكان الإمام البخاري يقوم من الليل مرات متعددة ويأخذ القداحة فيوري ناراً ويسرج، ثم يخرج أحاديث فيعلم عليها ثم يضع رأسه.

وقال الخليفة المنصور لمالك بن أنس: إني عزمت ان آمر بكتبك هذه التي وضعت - يعني الموطأ - فتنسخ نسخاً ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين نسخة وآمرهم أن يعملوا بما فيها. قال مالك:

لا تفعل يا أمير المؤمنين فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات وأخذ كل قوم بما سبق إليهم وعملوا به وإن ردهم عما اعتقدوا شديد فدع الناس وما هم عليه.

وأرسل الإمام أبو حنيفة وكان تاجراً إلى شريكه متاعاً فيه ثوب معيب يبيعه وشرط عليه أن يبين عيبه فباعه ونسي أن يبين ما فيه ولم يعرف المشتري فلما علم أبو حنيفة تصدق بثمن المتاع وكان ثلاثين ألف درهم.

وعندما خرج القاضي أسد بن الفرات على رأس الجيش الزاحف إلى صقلية، هاله ما رأى من كثرة المشيعين من العلماء والوجوه ورجال الدولة وعامة الناس وقد صهلت الخيل وضربت الطبول ونشرت البنود فقال:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، والله يا معشر الناس ما ولي لي أب ولا جد ولاية قط وما رأى أحد من سلفي مثل هذا قط، وما رأيت ما ترون إلا بالإقدام فأجهدوا أنفسكم وأتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه، وكاثروا عليه واصبروا على شدته، فإنكم تنالون به الدنيا والآخرة.

(٤)

وكان المسلمون في القضاء يؤمنون بأن القاضي لا يقضي عند الغضب والضجر والحزن ولا يقضي خائفاً ولا جائعاً ولا يلقن الشاهد ولا يشير في مجلسه ولا يومىء إلى أحد ولا يجيبن احداً في دعوته ولا يقبلن هدية.

وكان السلطان نور الدين محمود يلعب الكرة في دمشق ليروض خيله ويمرنها فرأى رجلا يحدث آخر ويشير بيده إلى نور الدين فأرسل إليه يسأله عن حاله:

فقال: لي مع الملك العادل حكومة. وهذا علام القاضي.

فألقى نور الدين (الجوكان) من يده وخرج من الميدان وسار إلى القاضي وهو حينئذ كمال الدين الشهرزوري، وأرسل إلى القاضي يقول:

إنني قد جئتك محاكماً فاسلك معي ما تسلكه مع غيري. فلما حضر ساوى بينه وبين خصمه وحاكمه فلم يثبت عليه حق

وثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين.

فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولمن حضر: هل ثبت له عندي حق.

قالوا: لا. قال: اشهدوا أنني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه وهو له ووني وقد كنت أعلم أنه لا حق له عندي وإنما حضرت معه لئلا يظن أني قد ظلمته.

ودخل عمارة بن حمزة على الخليفة المنصور، وكان ذا عزة وثروة ونفس أبية ومن جلساء المنصور فقام رجل وقال: مظلوم يا أمير المؤمنين.

قال: من ظلمك قال: إنما ظلمني عمارة بن حمزة. غصبني ضيعتي.

قال: المنصور: قم يا عمارة فأجلس مع خصمك للقضاء.

قال عمارة: يا أمير المؤمنين إن كانت الضيعة له فلست انازعه فيها وإن كانت لي فقد وهبتها له.

(٥)

وكان للمرأة المسلمة تاريخ ومواقف:

يقول ابن اسحق: إن أبا سفيان خرج من مكة حتى قدم المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة وهي يومئذ زوج النبي فلما

ذهب يجلس على فراش رسول الله طوته عنه فقال: يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني، قالت:

بل هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك فلم أحب أن تجلس عليه.

وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها. نعم النساء الأنصار لم يمنعهن الحياء ان يتفقهن في الدين.

ولما عادت هند بنت عمر بن خزام بعد موقعة احد وقد استشهد زوجها وأخوها وابنها سألها الناس فقالت:

أما رسول الله فصالح وكل مصيبة بعده جلل، واتخذ الله من المؤمنين شهداء ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً.

وروي أن رجلا فقيراً بمكة خرج إلى الحرم فوجد كيساً به بعض الدنانير ففرح بها وعاد إلى زوجته فأخبرها الخبر فطلبت إليه أن يعود فيعرف عن ما وجد فخرج فسمع منادياً ينادي: من وجد كيساً فيه دنانير كنزاً فقال الرجل: ها هو قد وجدته فقال له الرجل: هو لك ومعه تسعمائة أخرى.

قال: اتهزأ بي قال لا والله ولكن هكذا قال لي رجل: خذ هذه الدنانير فاطرح بعضها في الحرم فإن ردها إليك من وجدها فادفع إليه الجميع فإنه أمين والأمين يأكل ويتصدق.

ولما وفدت أسماء بنت يزيد الأنصارية إلى النبي وهو بين أصحابه قالت:

بأبي أنت وأمي يا رسول الله. وافدة النساء إليك. إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة. فآمنا بك وبإلٓهك، إنا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم وحاملات أولادكم وأنتم معشر الرجال فضلتكم علينا بالجمع والجماعات وشهود الخبائر والحج بعد الحج وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل وأن أحدكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مجاهداً حفظنا لكم أولادكم وأموالكم وغزلنا أثوابكم وربينا أولادكم أفنشارككم في هذا الأجر والخير.

فالتفت النبي إلى أصحابه بوجهه كله وقال:

هل سمعتم مسألة إمرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها؟

قالوا: يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا.

فالتفت النبي إليها وقال: إفهمي ايتها المرأة واعلمي من خلفك من النساء إن حسن تبعل المرأة لزوجها يعدل ذلك كله.

ولما جعل النبي ﷺ نساءه يوم حرب الخندق مع حسان بن ثابت في أطمة جاء رجل من اليهود فرقي الأطم يطل على نساء النبي قالت صفية بنت عبدالمطلب: لحسان بن ثابت: قم فاقتله.

فهاب حسان الأمر وقال: لو كان ذلك في لكنت مع رسول الله.

فقامت صفية فأخذت عموداً فضربت به اليهودي حتى قتلته ثم طرحته من فوق وهم أسفل الأطم فقالوا:

قد علمنا أن محمداً لم يكن ليترك أهله خوا ليس معهم أحد فتفرقوا عن هذا الموضوع.

(٦)

وفي مجال الرحمة بالكبد الرطبة كان المسلمون يعرفون كيف يصرفون أمرهم:

خرج عبدالله بن جعفر إلى ضيعة له فنزل عند قوم لديهم عبد أسود وكان معه ثلاثة أرغفة فدخل كلب فدنا منه فرمى إليه برغيف فأكله فرمى إليه الثاني فأكله ثم رمى إليه الثالث فأكله. قال له عبدالله: كم قوتك كل يوم يا غلام. قال ما رأيت.

قال فلم آثرت الكلب. قال لأن أرضنا ليس فيها كلاب وقد جاء من بعيد يدفعه الجوع فكرهت رده. قال: فما كنت صانعاً اليوم.

قال: أطوي يومي هذا، قال عبدالله بن جعفر ان هذا والله لأسخى مني ثم انه اشترى الأرض والعبد ثم أعتقه لوجه الله.

(١٢)

الصمود في وجه العدو

كان المسلمون طوال مراحل قوتهم وانتصارهم ويقظتهم على وعي كامل بعدوهم ويقظة كاملة في سبيل حماية لدار الإسلام وذودا عنها. فإذا غفلوا عن هذا الأمر انتهز منهم العدو الفرصة السانحة وهاجم قواعدهم. ولقد وجه القرآن المسلمين إلى هذا المعنى في مواضع كثيرة ودعاهم إلى الأخذ بالحذر ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾

ولقد ظلت خطوط المواجهة بين أرض الإسلام وأرض الروم تشتعل بالمعارك على مدى تاريخ طويل لم يتوقف، وظل المسلمون يؤمنون بالمرابطة الدائمة وحشد الثغور والاستعداد الدائم للهجوم والدفاع، يغطي على أطراف عالم الإسلام وبرزت دول قوية ورجال أشداء أمضوا أيامهم في هذه المواجهة.

فلما أحس الغرب أن حصنه الحصين في مواجهة عالم

الإسلام قد انهار بدأ حلة ضخمة ترفع لواء الغزو، هي ما أطلق عليها «الحروب الصليبية».

ومنذ اليوم الأول تقدم المسلمون للجهاد والاستشهاد وقدموا النفس رخيصة في سبيل الحق؛ حتى جاء (نور الدين) فأعد مخططاً كاملاً للجهاد (بناه على الإعداد الفكري والروحي والنفسي كمقدمة لبناء أجيال مسلمة على ما أقام عليه الرسول المسلمين في صدر الدعوة. كما استطاع أن يوحد دمشق وحارم وبانياس ثم اتجه إلى استكمال الوحدة بمصر، وقد نجحت خطة التماس المنابع الأصيلة للنصر المستمد من مفاهيم الإسلام واستطاع نور الدين أن يذيل من المملكة الصليبية وأن يهدم في أركانها فقاد المعارك بنفسه وكان في الحرب ثابت القدم حسن الرمي صلب الضرب يتقدم أصحابه ويتعرض للشهادة. وكان يسأل الله أن يحشره في بطون السباع وحواصل الطير وكان أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة حتى قيل انه لم ير على ظهر فرس أشجع ولا أثبت منه، أحب المرابطة للعدو، وكان إذا التقى الجمعان في موقعة انفرد بنفسه وسجد لربه عز وجل ومرغ وجهه وتضرع وقال: اللهم أنصر أولياءك على أعدائك.

وكان يقول: إني لأستحي من الله أن يراني مبتسماً والمسلمون محاصرون من الفزع.

وكان يصلي كثيراً بالليل، وينزل، إلى المسجد بغلس ولا

يزال يركع فيه حتى يصلي الصبح يلبس بالليل مسحا ويقوم يصلي فيه ردحا من الليل، وعاش حياته على سهمه من الغنيمة ورفض كل مال أرسل إليه.

هاجم المملكة الصليبية وقضى حياته كلها في حرب دائمة مع الصليبين وكانت كبرى مواقعه معركة (أنب) في صفر ٥٤٤ إذا حشد فيها الصليبيون حشداً كبيراً فذهب إليهم نورالدين في ستة آلاف فارس وقاتلهم قتال الأبطال وصرع أميرهم البرنس (أبو بيمونت) الذي كان مشهوراً بشدة البأس وقوة الحيلة وبعد السطوة وبغضه الشديد للمسلمين.

يقول المؤرخ بن الأثير: لقد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين من الإسلام إلى يومنا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحريا للعدل والإنصاف منه فقصر ليله ونهاره على عدل يسره وجهاد يتجهز عليه ومظلمة يزيلها وعبادة يقوم بها وإحسان يوليه وإنعام يسديه.

ثم جاء صلاح الدين فحقق ما وطده له نور الدين في بناء مدرسة المقادمة والمواجهة فأتيح له أن يحقق انتصاراً حاسماً في الموقف كله.

كان رأي صلاح الدين أن مصدر القوى في مصر وأن طليعة الجهاد تبدأ من القاهرة فأنشأ سوراً ضخماً حولها وأقام قلعة منيعة ونظم جيشاً عرمرما، وحصن الإسكندرية ومضى

في طلعة موفقة حقق بها سلطانه على جميع الإمارات.

ثم كانت معركة حطين التي أتاحت للمسلمين استعادة بيت المقدس من الصليبيين.

(٢)

إن أول حملة صليبية قدمت من أوربا استطاعت أن تستولي على بيت المقدس ١٠٩٩ م (٤٩٢ هـ.) وإنها لم تمكن من ذلك إلا عن طريق مجزرة بشرية بشعة قتل فيها أكثر من مائة ألف من سكان المدينة وقد تم على أثر ذلك إقامة المملكة اللاتينية التي تكونت من الإمارات الأربع. الرها وطرابلس وأنطاكية وبيت المقدس.

ثم وضعت خطط التوسع الهادفة للوصول إلى بغداد شرقا والقاهرة غربا ومن بينها الوصول إلى البحر الأحمر والسيطرة على «العقبة» التي كان يطلق عليها إذ ذاك إسم (إيله).

كانت الغزوة الأولى باسم حماية بيت المقدس وتخليصه، ولم تكن الدعوى صادقة فقد ظل المسلمون يحمون بيت المقدس ويكرمون زواره ويضعونه موضع الرعاية الكاملة منذ قدم عمر بن الخطاب إليه عام ١٧ هـ. وأرسى قواعد الأمن والمحبة بين المسلمين والمسيحين على ضوء ما قرره القرآن ودعا إليه الإسلام وطبقه النبي الكريم.

وقد واجه المسلمون والعرب منذ احتلال القدس بالمقاومة والجهاد حيث استجاشت المنطقة كلها ببعث قوى تحت إسم الجهاد والفداء، فبرزت كتائب الفداء في المنطقة الممتدة بين مدينتي الموصل وحلب وبدأت حركة المقاومة واستطاعت أن تحقق نتائج تؤكد الحق حتى تقدم عماد الدين زنكي أمير الموصل فحمل راية الجهاد واستطاع أن يضرب الصليبيين ضربة قوية حيث انتزع منهم حصن الرها، وكان هذا العمل مقدمة العمل نحو تدمير الكيان الصليبي وبه فتحت ثغرة في جدار المملكة اللاتينية.

ولما استشهد عماد الدين بفعل مؤامرة الصليبيين كانت أضواء الفجر توشك أن تكشف عن عمل أعظم قوة وأقرب إلى مفاهيم الإسلام حيث استطاع (نور الدين محمود) ان يستفتح عصراً جديداً في معركة المواجهة قوامه أمرين هما:

(الأول): إعادة التسلح الخلقي وإنشاء مدرسة جديدة توحد القيم العقلية والروحية وتطبعها بطابع الإسلام وأبرز معالمها إحياء فريضة الجهاد.

(الثاني) تكوين جبهة قوية ممتدة لمواجهة الخطر الصليبي يمكن أن يطلق عليها إسم «الجبهة الإسلامية العربية».

ولم يكن نور الدين محمود حاكما من آل زنكي بقدر ما كان نموذجا إسلاميا وضيئاً، مطبوعاً بطابع التوحيد يلتمس مفاهيمه في مواجهة الغزو الصليبي الغربي بروح مؤمنة، تستمد

من نفس المعين الأصيل ويتخذ الأسباب التي انتصر بها رسول الله ﷺ وانتصر بها المسلمون على مدى التاريخ، وهي مفاهيم لا تفنى على اختلاف العصور، ولا تتغير على تباين البيئات.

ولن ينتصر المسلمون والعرب بغيرها.

قوامها «العقيدة والقوة معاً».

وقد ذلل الله لنور الدين وهو الصادق في دعوته وانتمائه أن يحقق في المجالين نتائج ضخمة فاستطاع إنشاء مدرسة «التسليح الخلقي» وحشد لها العلماء والفقهاء والصوفية المؤمنين بالجهاد في سبيل استخلاص الحق وإقرار العدل ومطاردة الظلم والبغي.

وقد استقر في حلب وسرعان ما استطاع ضم دمشق، ثم مد يده إلى مصر، فأتم دائرة الوحدة التي أورثها لقائد نابه من رجاله، اقتفى أثره وسار على نفس الخط واستطاع أن يستثمر كل الغراس الذي مهد له نور الدين: ذلك هو صلاح الدين، الذي تسلم الراية بعد جهاد سنوات حافلة امتدت ثمانية وعشرين عاما حين توفي، في تركيز الخطى ودعم النظم ومواجهة الصليبين في كل مكان وبناء الحصون والقواعد حتى استقام له الصف وتأكدت الوحدة.

لقد وضع نور الدين تلك القاعدة التي حققت النصر وأكسبته الجولة: وهي أنه لم يكن يحارب الصليبيين على أنهم نصارى بل على أنهم أجانب على بلاد العرب والمسلمين، وقد

بلغ من أمر نور الدين أن كان الصليبيون يقولون:

« إن نور الدين له مع الله سراً فإنه ما يظهر علينا بكثرة جنده وعسكره وإنما يظهر علينا بالدعاء والصلاة إلى الله ».

وقد نجحت خطته في (إعادة التسلح الخلقي) كقاعدة للمقاومة فانشأ مئات المساجد والمدارس وجعلها قاعدة للقتال؛ حيث أخذ يبني الأجيال بالإيمان والتماس مفاهيم الإسلام في التوحيد والجهاد وبذلك خلق جواً ثقافياً إسلامياً عربياً له مفاهيم تاريخ طويل وتراث باهر في النصر المؤذر. والذود المشرف على الأرض والعقيدة والإستشهاد في سبيل حماية الذمار وإعلاء كلمة الله.

وكان نور الدين فارسا محاربا وقائداً مقتدراً في رسم الخطط وتنظيم المعارك وإعداد أساليب الحصار وأدوات الغزو، إذ يتقدم المقاتلة ويحسن القتال في مواجهة العدو ويرمي بالقوس عن براعة وقد اكسبته محبته للعبة الكرة وولعه بالرياضة مرونة وتفوقاً.

وكان إلى ذلك مطبقاً لخلق الإسلام رفيقاً كريماً عفواً عند المقدرة، شهما أريحياً مع أعدائه إذا انتصر عليهم وذلك وفق مفهوم البطولة الإسلامية والفروسية الإسلامية، وكانت الشريعة الإسلامية مادة مجتمعه وأداة عمله والقضاء عنده في أعلى مقام.

وكان نور الدين حفيا بأن يتبع أسلوب رسول الله في أعمق معنوياته وفي أدق مظاهره.

* * *

وقد تابع (صلاح الدين) خطط أستاذه وسيده (نور الدين) حتى فاقه وكتب له التاريخ أروع صفحة من الخلق والقيادة والنصر، بحيث تضاءل بجواره اسم نور الدين الممهد الحقيقي لما حققه صلاح الدين.

ولقد ذهب كثير من المؤرخين إلى أن النصر الذي تم على يديه لم يكن نتيجة مصادر قوة حربية أو قيادة حكيمة، بقدر ما كان مصدره ذلك الصدق الوثيق والإيمان العميق.

وقد شهد له بذلك كثير من كتاب الغرب، حتى أشدهم تعصباً، إذ عجز عن اتهام صلاح الدين أو إنكار طابعه الإسلامي العميق يقول هاملتون جب:

« لقد كانت منزلة صلاح الدين ومناقبه الشخصية والروح التي أخذ بها مهمته والأساليب التي استخدمها تختلف اختلافاً كلياً عما لدى مؤسسي الدول العسكرية الكبرى وعما أبرزوه من منزلة ومناقب وأساليب.

ولم يكن صلاح الدين إدارياً بارعاً ولم يكن رجل حرب أو إدارة بحكم ميوله وتدريبه ولكنه هو نفسه الذي جمع حوله

جميع العناصر والقوى التي كانت تستهدف توحيد الإسلام في وجه الغزاة ووجهها وألهمها ولم يستعمل في تحقيق هذا الأمر شجاعته وعزمه الذاتيين في غالب الأحيان وإنما حقق ما حققه من ذلك بإنكاره للذات وتواضعه وكرمه ودفاعه المعنوي عن الإسلام ضد أعدائه وضد من ينتمون إليه انتماءاً إسمياً على حد سواء. ولم يكن صلاح الدين ساذجا ولكنه مع هذا كان في غاية النزاهة ولقد أجبر أعداءه من الأدنين والأبعدين، لأنهم كانوا يتوقعون أن تكون حوافزه مثل حوافزهم وأن يقوم بالألاعيب والمناورات السياسية مثلما يفعلون. وكان هو نفسه طيب السريرة وكان من حوله في آخر الأمر يصطدمون بصخرة مستقرة من إخلاصه لمثله العليا إخلاصاً لم يكن لأحد من الناس أو لشيء من الأشياء أن يزعزعه من مكانه.

وأرى أنه لم يحاول أحد من الدارسين حتى اليوم أن يتفهم الطبيعة الحقيقية لتلك المثل العليا فالمهمة الملحة التي وجد نفسه مدعوا للاضطلاع بها هي طرد الفرنجة في فلسطين وسورية، وهذه هي الناحية التي أبرزها معاصروه وافترضت الأجيال التالية أنها كانت كل غرضه.

إن طموح صلاح الدين نشأ من بساطة خلقه، وسداد رؤاه، فقد تجلى لعينيه ان ضعف المجتمع الإسلامي السياسي الذي سمح بتأسيس المملكة الصليبية واستمرار بقائها إنما نجم عن انحطاط في الخلق السياسي.

وعلى هذا الانحطاط ثار صلاح الدين ولم يكن أمامه إلا طريقة واحدة للقضاء عليه، وهي أن يعيد الكيان الإسلامي في ظل دولة واحدة موحدة، وأن يبعث ذلك الكيان مجدداً، لا تحت حكمه هو وإنما بأن يعود إلى حكم الشريعة.

وكانت مثاليته في الوقت نفسه تخضع لنزعة عملية قوية، فالوضوح الذي كان يزن به كل خطوة يخطوها نحو غايته وكل حالة لدى ظهورها تقفنا على سر التوسع المستمر في سلطانه، ولما كان يعرف أن المشكلة التي يواجهها لم تكن سياسية فحسب؛ بل هي إلى حد أكبر أخلاقية نفسية وإنه إذا عالجها على المستوى السياسي والعسكري فسيعجز عن حلها، أدرك انه إن شاء أن يصل إلى نتائج فعالة فعليه أن يدعم الولاء السياسي بحوافز وروادع أخلاقية ونفسية.

ومن أجل أن يصل إلى غايته كان عليه أن يقوي أعماله والقدوة التي يخلقها بإيجاد تيار خلقي ونفسي يسند موقفه ويكون قوياً بحيث يتعذر مقاومته فكان لذلك في حاجة إلى حلفاء وبخاصة طبقة «فقهاء المدارس» وهم وقادة الرأي العام يومئذ.

وقد استطاع بصدقه وإخلاصه أن يكسب احترامهم له وإعجابهم به واحتذى مثل نور الدين في تقريب الصوفية ورعايته لهم.

ولقد كان مثالياً في إعادة حكم الشريعة إلى العالم

الإسلامي، وسعى إلى تحقيق حلمه بـإنكـار الذات والعـدل والأخلاق وقد استطاع بهذه الأسس الإخلاقية وحدها أن يطلع بالمهمة الملقاة على عاتقة وهي مهمة لم يسبق لها مثيل، فخلال قرون لم يسبق لأمير مسلم ان واجه مشكلة إبقاء جيشه في الميـدان لمدة ثلاث سنـوات وهـو يحارب عـدواً نشيطـاً مغامراً.

تلك هي الطبيعة الحقيقيـة لمآثـره فلقـد انتشـل الإسلام طوال فترة حاسمة من وهدة الإنحطاط الأخلاقـي السيـاسي حين نادى بمثل أخلاقي أعلى ولما أن طبق هذا المثل على حياته الخاصة وأعماله خلق حوله حافزاً للاتحاد كان كافياً على الرغم من عدم اكتماله لمواجهة تحد معيب ألقاه القدر في طريقة.

وهكذا يرجع (جب) وغيره إنتصارات صلاح الدين إلى ذلك الإتجاه الواضح إلى «الشريعة» الإسلامية وإلى إحياء عامل الجهاد قائماً بالإيمان وأنه كان يحاول أن يجد قدوته في الرسول ﷺ قدوة كل قائد ومجاهد، مرجع كل من يتصدى لأمور المسلمين حيث يجد عنده المثل الأعلى الذي يصل به إلى الطريق: طريق النصر.

وهنا تكشف الوقائع التاريخية والتحليل التاريخي أن النصر الذي حققه صلاح الدين في حطين فكسر به هذا القيد، وفتح الطريق لإزالة هذا الغزو، حصناً بعد حصن، إنما يرجع إلى هذه الحقيقة التي واجهها صلاح الدين بعد نور الدين في قوة

حين تساءل: بماذا انتصر المسلمون؟ ثم عمد إلى هذه الأصول فطبقها وكان هو نفسه المثل والقدوة للمسلمين، فكان الإيمان بالله قائماً من خلال أحدث التنظيمات العسكرية والحربية، ولم يجعل التسلح المادي وحده سبيلا وإنما أضاف إليه التسلح الخلقي. محققا في «حطين» ما حققه المسلمون في بدر واليرموك ونهاوند.

ويوم عرف المسلمون أن طريقهم هو دعم معنوي خلقي مؤازر للدعم الحربي العسكري، فقد فتح الله لهم أبواب النصر وأدال لهم من عدوهم.

* * *

ولما دخل صلاح الدين بيت المقدس ظافراً منتصراً لم يسفك دما ولم تنهب جيوشه بيتا، بل أمن الجميع على أموالهم وأمتعتهم.

قالوا له: أما وقد كتب لك الظفر على أعدائك، أفلا تنتقم منهم وأنت تعلم مقدار ما فعلوا من الفظائع.

قال صلاح الدين: هذا يمنعني منه ديني.

قالوا: وهل دينك يمنعك من الإنتقام من قوم بادؤك بالعدوان وساموا قومك الخسف والعذاب.

قال نعم: إن ديننا يمنعنا من أن نجاري خصومنا على عنادهم وأن نكون أوفياء لعهودنا وأن نصفح عمن أساء.

ولما قسمت غنائم الحرب تنازل صلاح الدين عن نصيبه للفقراء وأعتق أسراه.

وعندما بدأ الفرنجة يرحلون ترك للصليبيين المدينة حتى لا يجرح شعورهم ووقف مناديه من مطلع الشمس حتى غروبها ينادي:

« هل من فقير فنأويه أو عاجز من دفع الفدية لنعطيه »

وعفا عن سبعة آلاف من العجزة عن الضريبة ودفع بعضها من جيبه الخاص ورفض أن يصادر بطريرك بيت المقدس عند خروجه منها وسمح للفرنج المدنيين إذا شاءوا أن يعيشوا، أما المحاربون فعليهم أن يخرجوا بنسائهم وأطفالهم وحمل الكهنة ذخائرهم الذهبية وخرجوا بها ولم يتعرض لهم أحد بأذى. بل قدمت الدواب لكثير من الذين لا يجدون ما يركبونه.

وقد شهد المؤرخون الغربيون بكرم أخلاقه وشجاعته شهدوا بأنه عامل نساء الصليبيين معاملة حميدة وسمح لهن بالخروج من بيت المقدس معززات مكرمات ومعهن أموالهن وأتباعهن وحشمهن.

وعامل الأميرات الأسيرات بكل تكريم وسمح لهن باطلاق سراحهن.

بدا الفرق واضحاً بين سلوك صلاح الدين عندما استعاد

القدس وبين ما فعله الصليبيون عندما سقطت في أيديهم وقتلوا سبعين ألفا.

هذا الفارق هو فارق الإسلام الذي انتصر به المسلمون.

ولما فقد (ريكاردوس) ملك إنجلترا جواده، أرسل صلاح الدين جوادين عوضا عنه، ولما مرض وأوقذته الحمى أرسل إليه هدية من الفاكهة والثلج. ولما تجمع الصليبيون مرة أخرى بعد انتصار صلاح الدين في بيت المقدس وجاءت حملة صليبية أخرى اشترك فيها ثلاثة من أعظم ملوك أوربا: ألمانيا وفرنسا وانجلترا وتجمعوا أمام عكا ثبت صلاح الدين ثبات الإيمان يقول ابن شداد: إنه حدث في أثناء حصار الصليبيين لعكا ان وصلت في البحر في ليلة واحدة أكثر من سبعين مركباً صليبياً وهو يعدهم مركباً بعد مركب من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس. ومع ذلك فإنه كان لا يزداد إلا قوة نفس، وما رأيته استكثر العدو أصلا، أو استعظم أمرهم قط، وقد حدث في بعض المواقع ان هزم المسلمون وسقط علمهم على الأرض ومع ذلك ظل صلاح الدين ثابت القدم في نفر يسير حتى انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ولم يزل كذلك حتى نصر عسكر المسلمين على العدو.

* * *

وفي مختلف كلمات صلاح الدين للمجاهدين كان الرسول

مثله الأعلى: «كان النبي لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة على الموت في لقاء العدو، ونحن أول من نتأسى به، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة. والتحالف على الموت؛ إعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة بذممكم، وإن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم فإن وليتم بأنفسكم، والعياذ بالله طوى البلاد طي السجل للكتاب وكان ذلك في ذمتكم فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم».

وفي ظل معركة المقاومة والمواجهة بدأت المرابطة في الثغور وانتعشت الفروسية وكان أول ما يتعلمه المسلمون هو المرانة على ركوب الخيل، واللعب بالسيف والرمح وكل أدوات القتال. ورواية شعر الحماسة والمروءة والأدب ومكارم الأخلاق.

وفي ظل المعركة ظهر العز بن عبدالسلام ومحيي الدين النووي وابن دقيق العيد وابن تيمية فكانوا كالمنارات السامقة التي تهدي إلى العمل والمقاومة بدعوتها إلى تحرير الإسلام من البدع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحرير البلاد الإسلامية من الظلم والعدوان.

فالعز يجاهد الغزاة ويشعل الحماس في الصدور ويدفع الناس إلى الجهاد ومحيي الدين النووي بعد العز يتنقل في

العواصم الإسلامية يحرض على قتال العدو وابن دقيق العيد يحرض على الأمر بالمعروف.

ودعا العز الثراة إلى إخراج التحف والمطارف لينفقوا منها على إعداد الجيش فخرجت الأكداس من الحلي والثياب المزركشة وانتزعت مقابض الذهب والفضة من السيوف والأواني وضربت فكفت وأغنت ولم تمس أرزاق الناس كما مضى المصلحون إلى مقاومة خصوم الإسلام من الباطنية والحشاشين، بسلاح دحض الشبهات والزهد النقي والسنة الصحيحة، وكان أكبر عمل لمقاومة خصوم الإسلام هي مدارس الحديث والتماس منابع الإسلام وأصوله وجوهره، والمصلحة بين الفرق الإسلامية وصهرها في فكر إسلامي موحد أساسه مفهوم التوحيد استمداداً من القرآن

وفي خلال معركة الحروب الصليبية ومعارك مقاومة الفرنجة والتتار ظهر عدد كبير من المصلحين في مختلف المجالات وكثير من العلماء والإنتاج الضخم في جميع العلوم الإسلامية.

ومضى العلماء يحثون على الجهاد ومقاطعة السلاطين المتعاونين مع العدو وتحريم بيع السلاح للصليبيين.

ثم جاء الظاهر بيبرس فقطع مراحل أخرى في مواجهة الصليبيين والتتار معاً وكان شجاعاً يباشر الحرب بنفسه وله الوقائع الكبرى.

استطاع بيبرس تحطيم قوة الأمير (بـويمونـد) صـاحـب طرابلس بانتزاع أنطاكية بعد أن وجه إليها سبع حملات ودهم فرسان القديس يوحنا واحتل حصن الأكراد أمنع معاقلهم وأخضع الإسماعيلية وأسقط حصونهم واحداً بعد الآخر في أيدي قوات المسلمين.

ورد المؤرخون نجاحه إلى سرعته وجرأته التي لا مثل لها وإلى براعته في التنظيم فقد كان ينتقل بفرسانه في سرعة ويباغت المدينة في الوقت الذي يعتقد أهله فيها أنه لا يزال في القاهرة، وأعظم مجازفاته ما قام به صحبه رجاله الأربعين في مهاجمة حصن الأكراد فقـد تنكـر في ثيـاب شيـخ عجـوز واشترك في السفارة إلى بويموند صـاحـب طـرابلس ليختبر بنفسه قدرة المدينة على المقاومة.

وقد أشاد (توينبي) بكفاح قطز وبيبرس وقلاوون فقال:

« كان المماليك هم الجنود الوحيدون في القرن الثالث عشر الذين كانوا أكثر من مجرد مد للمغول، ولقد أغار المغول على غرب الفرات وشرق الهند ولكنهم لم يتمكنوا من أن يقيموا استحكامات دائمة خلف هذين النهرين.

ثم ان الإسلام قهر المغول آخر الأمر في إيران والعراق، بعد أن هزم الإسلام الأديان الأخرى في المنافسة على هداية المغول ».

وإذا كان صلاح الدين يعد الشخصية الكبرى التي سجل

التاريخ بطولتها في المعركة الصليبية، فإن أحداً لم يستطع أن يواصل سياسته بالقوة نفسها، حتى جاء الظاهر بيبرس فكان محارباً في مجالات ثلاث:

الصليبيون والتتار والحشاشون فأدال منهم جميعاً وحطم حصونهم ودمرها عليهم.

لا ريب أن هذه الصورة تعطي الإجابة على سؤال: بماذا انتصر المسلمون.

لقد انتصروا بأن استأنفوا حياة جديدة قائمة على مفهوم العقيدة الصحيحة وتطبيق الشريعة والأخلاق وإقامة الإيمان رابطاً بين العلم والعمل.

وقد استلهموا تاريخهم الأول ونظروا إلى القدوة المثلى والأسوة الحسنة في رسول الله ﷺ مما أعادهم مرة أخرى إلى جادة الطريق.

(١٣)

صناعة الموت

ليس أروع من تاريخ الإسلام صفحة تكشف لنا عن عظمة الإيمان بالله في صناعة الموت، كأداة للنصر والحياة، هذه الصفحة التي نحن أشد ما نكون حاجة إليها اليوم ونحن في قلب معركتنا مع العدو، فلقد طالما رجع المسلمون إلى هذه الصفحة والتمسوا العبرة منها، وقفوا أمام تلك الصورة الباهرة التي قدمها العرب المسلمون الأوائل في مجال الجهاد والنضال والفداء ومقاومة كل غاصب وغاز ونحن وقد صممنا على أن نستعيد حقنا، وجهنا كل مقدارتنا في سبيل هذه الغاية وراء قيادتنا الظافرة، نقف اليوم على قمة مرحلة حاسمة من التاريخ.

هذا خالد بن الوليد في اللحظات الأخيرة من حياته يسترجع الأحداث ويقول:

لقد طلبت القتل في مظانه فلم يقدر لي، إلا أن أموت على فراشي، وما عمل أرجى عندي بعد « لا إله إلا الله » وأحب علي من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين، ما ليلة يهدي فيها عروس أنا لها محب، أو أبشر فيها بغلام أحب إلي من ليلة شديدة الجليد؛ ان المعونة تأتي على قدر النية والأجر على قدر الحسنة، إن المسلم لا ينبغي أن يكترث لشيء يقع فيه مع معونة الله له.

وهذه صورة طارق بن زياد وهو بين جنده يقول: البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهبت ريحكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، وأني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس أربأ بنفسي؛ واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه وأني حين يلتقي الجمعان حامل بنفسي على طاغية القوم (لذريق) فقاتله إن شاء الله فاحملوا معي فإن هلكت فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه.

وهده صورة تعطي حكمة رائعة:

حاصر مسلمة بن عبدالله حصناً في حصار دمشق، فندب الناس إلى (نقب) منه فما تقدم إليه أحد حتى واجهه سيل من النبال فرجع، وفجأة تقدم رجل نحيل ضامر الوجه، اندفع على فرسه، لا يبالي وقع السهام عليه، حتى دخل النقب وفتح الباب للمسلمين. فلما انتهت الحرب نادى مسلمه يسأل عن صاحب النقب فلما لم يصل إلى شيء، هدد وتوعد، هناك تقدم رجل إلى خيمة الأمير وقال:

- سيدي: أنا أعرف صاحب النقب وأستطيع أن أدلك ... بشرط.

قال الأمير ـ وما هو الشرط.

ـ إن لا تسألني عن اسمي.

قال الأمير ـ هذا حقك.

قال الرجل: أنا هو، ثم قام وخرج من الخيمة وذاب في غمار الجند فكان مسلمة لا يصلي بعدها صلاة إلا ويقول في دعائه:

ـ اللهم احشرني مع صاحب النقب.

* * *

وفي محاولة فهم صناعة الموت من نصوص التاريخ الإسلامي نجد صوراً أخرى لنا فيها عبرة.

عندما وصل سعد بن أبي وقاص إلى شاطيء دجلة وجد على مدى البصر مدينة «المدائن» في عظمتها وقصر كسرى الأبيض في بهائه، وانتهى به الرأي أن يعبر مع رجاله على خيولهم، وكان هذا أمراً غريباً وجديداً عليهم فلم يلبث أن تقدم «عاصم بن عمرو» ومعه ستمائة من أهل النجدة فساروا حتى بلغوا شاطيء دجلة يريدون أن يعبروا أولا ليحموا الشاطيء الآخر، فلما وجد بعض رجاله يترددون، تلا قوله تعالى:

﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا﴾.

ثم رفع رأسه فاقتحم النهر واقتحمه زملاؤه، فلما رأى القعقاع بن عمرو الكتيبة الأولى تتقدم في سبحها، ونظر فإذا العدو في الجانب الآخر يتأهب لردها، أمر سائر أصحابه الستمائة فدفعوا خيولهم إلى النهر فـدخلـوه كما دخلـه عـاصم وأصحابه وتولى العدو العجب لهذا الصنيع، فأرسلوا فرسانهم ليمنعوهم من الخروج وليقاتلوهم على الماء وصاح عاصم:

« الرماح، الرماح.. أشرعوها وتوخوا العيون » وخرجت كتيبة الأهوال سالمة.

* *

ومن صور « صناعة الموت » هذه الصور الباهرة. عندما ظهر طاعون « عمواس » بين المسلمين في الشام، أرسل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى قائد جيشه في الشام « أبو عبيدة بن الجراح » خطاباً يقول فيه:

« قد عرضت حاجة عندنا لا غنى فيها عنك، فإذا أتاك كتابي فإني أعزم عليك، إن أتاك ليلا أن لا تصبح حتى تركب، وإن أتاك نهاراً أن لا تمسي حتى تركب إلي ».

فلما وصل الخطاب أبا عبيدة ابتسم وصمم على ان لا يلبي رغبة الخليفة وقال:

قـد عرفت حاجته، يرحم الله عمر، أنه يريد أن يستبقي ما ليس بباق.

وأرسل إليه يقول: يا أمير المؤمنين.

لقد عرفت حاجتك التي عرضت لك فخلي عن عزمتك، إني في جندي ولا أرغب بنفسي.

مات أبو عبيدة في طاعون عمواس ورفض أن يترك جنوده وينجو من الوباء! وهذا أبو محجن الثقفي المحارب الفارس وقد حبسه القائد سعد بن أبي وقاص لأنه يشرب الخمر، وجاء يوم معركة القادسية وهو في قيده، ينظر من سجنه، إلى المعركة وهي تدور، فلما رأى ميمنة جيش المسلمين تضعف، استأذن زوج سعد، وأطلق نفسه من عقاله وركب (البلقاء) فرس سعد (الذي كان مريضاً في هذه الموقعة وكان يديرها وهو منبطح على بطنه ويرمي بالرقاع إلى قواده من مكان عال).

واندفع أبو محجن يزلزل كالصواعق، وينصر المسلمين.

ونظر سعد وعجب وقال: يالله: الضرب ضرب أبو محجن وهذه هي البلقاء ولولا أنه في محبسه لظننت أنه هو.

فلما انتهت الموقعة عاد أبو محجن متسللا حتى وضع نفسه في القيد فلما علم سعد أنه هو، أرسل إليه محيياً وقال له:

والله لن أضربك الحد أبداً (لشرب الخمر) بعد أن نصرت الله والمسلمين فقال أبو محجن: وأنا والله لن أشربها أبداً، لقد كنت أشربها أنفة حتى لا تقول العرب أنني أخاف الحد، واليوم أتركها رغبة في أن يقولوا: «خاف الله».

هذا خالد وله في صناعة الموت قصص.

حين طلب إليه أن يقصد الشام في جيشه لمواجهة الروم، وكان الموقف خطيراً أراد أن يختصر الطريق ليصل باكراً، فسأل فوجد أن هناك طريقين: والتمس رافع بن عميرة الطائي «دليلا» له! فلما جاءه قال لخالد: انك يا خالد لن تطيق ذلك بالخيل والأنفال، ووالله أن الراكب المنفرد، يخشى فيها على نفسه، أنها خمس ليال لا يصاب فيها ماء.

قال خالد: لا بد من ذلك، فمر أمرك!

قال رافع: استكثروا من الماء، فمن استطاع أن يصر اذن ناقته على ماء فليفعل، فإنها المهالك إلا ما دفع الله.

وسار خالد بالجيش خمسة أيام في وحشة الصحراء، ينزلون كل يوم فيأكل الرجال ويشربون مما معهم من الماء، ثم يشقون بطون عدد من الابل التي اتخذوها خزانات ويخرجون الماء منها ويسقونه الخيل حتى بلغوا غايتهم.

تلك صور قليلة من صور كثيرة تملأ التاريخ الإسلامي من صناعة الموت لنا فيها عبرة، ونحن على ثقة بأن نصر الله لا يتخلف عنا وسوف نكتب صفحات من البطولة والصمود والمواجهة ما اعتمدنا على إيماننا بالله مع قوة السلاح أداة واحدة موحدة.

﴿يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً﴾.

فهرس